
شامات
الحُسن
قصص
إبراهيم فرغلي
مدونة ابو عبدو
دار العين للنشر

شامَات الحُسن

شامَات الحُسن

(قصص قصيرة)

إبراهيم فرغلي

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: بسمة صلاح
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٠٣٩ /٢٠١٣
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 260 - 4

شامَات الحُسن

قصص قصيرة

إبراهيم فرغلي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فرغلى، إبراهيم

شامات الحسن: قصص قصيرة/ إبراهيم فرغلى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٦٠ ٤

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع/ ٢٤٠٣٩ /٢٠١٣

"الجسد عند المحبين فكرٌ يفكر والروح جسد قابل للّمس"

أوكتافيو باث

المحتويات

فيما يرى النائم

رأيتني أتمشّى مع صديق كنت أعرفه جيدًا في الحلم، لكني لم أنجح في التعرف إليه حين استيقظت. كنا نتجوّل بهدوء في قاعة أكاديمية شاسعة؛ أوربية الطابع، فيما كانت أرضية القاعة الخشبية الباركيه، ذات اللون البني الفاتح، تلتمع بفعل انعكاس ضوء الشمس الساطع، عبر نوافذ شاهقة، تتجاور لتصنع ما يبدو كجدار زجاجي عملاق، بينما إلى اليمين نُطل على قاعات دراسية مفتوحة، بلا أبواب.

من خلف كتف صديقي، لاحظتُ امرأةً عارية تجلس في منتصف إحدى القاعات، تعتلي منصة خشبية مصقولة، لها نفس لون خشب الباركيه، كنتوء بارز مكعب التكوين يتوسط الغرفة. بدت امرأة ثلاثينية

بيضاء، بجسد ربيل ليّن بضّ، متناسق التكوين، شعرها أسود فاحم قصير. وحولها يتحلّق جمع من الدارسين من الشباب والفتيات. انتبهت إلى المشهد، فالتفت، واشتبهت في هيئة المحاضر الذي كان يقف موليًا ظهره للجدار، والذي قدّرت أنه نجيب محفوظ. دققت النظر فتأكدت منه. انتفضت ولكزت ذراع الصديق فانتبه إلى حيث أشرت له وتوقفنا معا.

في لقطة تالية، في الحلم نفسه، وجدتني واقفًا في قاعة تُماثل القاعة التي رأيت فيها محفوظ، يحيط بي عددٌ من أشخاص لا أعرفهم، كنت أحكي لهم عن محفوظ ودرس الموديل العاري. ثم إنني فوجئت بوجه محفوظ يُطل من خلف باب الدخول إلى القاعة وينظر إليّ مبتسمًا، ثم يدخل القاعة ويسأل عني وشخص آخر، ويستدعينا بملامح وجه ودود، فنسير خلفه إلى حيث يحاضر ويطلب منا الجلوس.

دخلتْ القاعة سيدة ترتدي ثوبًا أسود بكُمّين شفافين وبنطلون ضيق بنفس اللون. نظرت إلينا قبل أن تتجه إلى كرسي خالٍ في مقدمة القاعة، وتجلس. وبعد لحظات من التردد الذي بدا لي خجولًا بافتعال، وإيروتيكيًا بامتياز؛ خلعت الثوب الشفاف لتكشف عن "بودي" أسود ضيق. وبدأت في التعري. خلعت البودي ثم البنطلون، بينما كنت أرقب الانكشاف التدريجي، والمباغت أيضًا، لجزء تلو الآخر، من أجزاء جسدها؛ إثر تخلصها، مرة بعد أخرى، من قطعة ثياب مما ترتدي.

كان التناقض الصارخ بين لون ثوبها الأسود ولون بشرتها ناصع البياض مثيرًا. وبتمام عرْيها نامت على الأرض قريبًا مني. لم أكن أشعر بالإثارة،

بل كنتُ منتشيًا بأسلوبها في استعراض جمال جسدها، حيث تفرد ساقيها وتشد قدميها لتُبرز جمال الساقين مرّة، أو لتمنح ربلتي فخذيها تشكيلًا جماليًا، أو تتكئ بمرفقيها لتصنع بكتفيها ونهديها لوحة جمالية ما، أو تولينا ظهرها وتستعرض جمالياته في أكثر من طريقة.

ثم إنها تسللتْ زاحفة من الكرسي إلى الأرض. اختفى إحساسي في تلك اللحظة بوجود أحد سواي وإياها في الغرفة، كأنها أمست تقوم بعرضها الحسيّ لي وحدي. كان الجو العام من حولي يُسنُّ قانونًا إيروتيكيًا يقول بأن كل ما يمكنني أن أمارسه مع هذه المرأة لن يتعدى حاسة البصر. كأن جسدها يهمس: "افعل بعينيك ما تشاء". وهكذا بدأنا المضاجعة، وجهًا لوجه، من دون أن ألمسها، ومن دون أن تلمس يدها جزءًا من جسدي.

وبينما أتلقى نظرات عينيها الشبقة، أبادلها التحديق بعينين زائغتين تتحيران في موضع التحديق؛ بين عينيها وجسدها المسجّى على الأرض أمامي، فيما صوتُ محفوظ؛ بنبرته الفخيمة المميزة يرتفع جهوريًا، لكنه يأتيني كرجْع الصدى؛ لا أستطيع تمييز تفاصيله، وأحدس أنه يتحدث في الكتابة وعنها.

في أثناء خروجي من باب ضيق؛ بالكاد يسع شخصًا واحدًا، التقيت الشاعر والناقد محمد بدوي، صامتًا وغامضًا وشارد النظرات كالعادة، يسدد لي نظرة خالية من التعبير. تواجهنا بسبب صغر المساحة التي سيمر منها بدوي أولًا، فيما قلت له مبتسمًا وبنبرة إعجاب مضمر: "علشان

ما حدش يقول عليه كلاسيك بعد كده". وباهتمام لم يقلل من إحساسي بشرود نظرة عينيه، وإن كنت لمحت فيهما لمحة سريعة من الحماس، باغتني بدوي معقبًا؛ كأنه يقول جملته قبل أن يختفي: "آه. لأ هوا أكيد مختلف".

حينما استيقظتُ اعتبرتُ الرؤية إشارة لأن هذه المجموعة قد آن أوان نشرها فتوقفت.

خارطة الجسد

"جسدك غير مرئي.. قابل للّمس..
عصفوران تحت إبطيك.. صليب على
نهدك.. ولا موت".

يانيس ريتسوس

"انتهيتُ الآن. يجب أن أذهب". جاءني صوتُها مثل كابوس.

قلت: "لا لا يمكن". همستُ بتلك الكلمات بصوت لم يسمعه سواي.

ابتعدتْ عن السرير، وخطت خطوتين صوب المنضدة العالية المجاورة للفراش لتتناول خواتمها وأساورها. قلت لها أن تغلق الباب خلفها، مستسلمًا لخدر جسدي الذي انسحب تدريجيًا إلى وعيي شبه النائم.

شعرتُ بانقسامي إلى شخصين؛ أحدهما لا يزال منبهرًا بما فعلته يدا

هذه الفتاة، يبتغي الغياب في جنَّة حسية، والآخر عقلاني، براجماتي، يعرف أن الأمر برمّته لا يعدو الحُصول جلسة تدليك خاصة، لا أكثر ولا أقل.

استعدتُ إحساسي بكفيها. وهمستُ لنفسي: ليس ذلك تمسيدًا بريئًا، أو حتى إشارات حسيّة مُرِّرَت إليه عبر تينك الكفين. بل شفَّرَت جسدي فصرت أعرفه كما لم أعرفه قبلًا.

جسدي قرية دمشقية، كما تقول قصيدة معاصرة، مدينة عالمية كما أعرفه الآن. أمسى يضج بحياة لم أعرفها. مدينة تمتلئ بالأحاسيس، وليست ميتة كهذه التي نحيا فيها.

نائمًا على بطني أحسست بها تصعد إلى الفراش ثم تعتليني كأنها تمتطي فرسًا. جلستْ أسفل ظهري ووضعتْ فخذيها حول خصري. وبدأت طقوس التمسيد بالكتفين والرقبة ثم الظهر، بيدين مدرَّبتين خبيرتين، بالأحرى بصيرتين، تشبهان أيدي العرافات الضاربات في العمر.

تتحسس بأناملهما الجسد. تصل للعضلات المتعبة المتخشِّبة، وبالكفِّ المُدَرَّب تتبادل التربيت والتدفئة والشد والجذب، وإذا لاحظت تصلّب أي منها، فسرعان ما تستخدم كوعها بقوة وعناد، لا تتركها إلا وهي تضج بالحياة.

كنت أتكشَّف مع كفّيها ما لا أعرف من عضلات خفية في جسدي. عضلات صغيرة بين الكتف والظهر، وأخرى بين الخصر وأسفل الظهر.

أمسكتْ ذراعي الأيمن ووضعته خلف ظهري، ثم فتحت كفي، واضعة إياه على إحدى ردفي؛ لتُثبِّته بكفها الحنون الذي يتوسد كفي وتترك الكفين -كفي وكفها- يتعانقان، بينما تصل يدها الأخرى إلى عدد من العضلات التي يكشفها وضع ذراعي المقلوب.

ثمة خطاب عاطفي تتداوله الأصابع العشرة المتقابلة التي ينام كل منها على رفيقه.

موجات من الحنان، والشغف، تتنقل بين الكفين الثابتتين وأصابعهما العشرة، ثبات رخو، بينما تقوم بيدها الأخرى بتدليك عضلات الكتف.

كفها ينقل لي إشارة لم أعرفها قبلا، تفتح لي بابًا حسيًا جديدًا؛ وتنير دروبًا لم أعرفها من قبل. جسدي حياة كاملة، أحياء تضج بالحياة، أضيئت أنوارها بعد عمر من العتمة، أما كف الفتاة الرقيق فهو زائر المدينة الغامض؛ الملاك الذي لا يراه أحد، لكن وجوده يفيض على الأرواح بالسكينة والهدوء.

بقوة ناعمة، رصينة ومحسوبة، هصرتْ ردفيّ؛ كاشفة قوتها الناعمة. لم يكن مرورهما على إليتي بهذه الطريقة مجرد تدليك أعمى أو محايد، بل ثمة إعجاب خفي عبرت عنه الكفين حتى انتقل تياره إلى جسدي كله.

***

ناوشني الفضول لأتأمل وجهها؛ خصوصًا أنها كانت مصرّة على

الصمت. أُنصت لصوت أنفاسها، فلا أسمع شيئًا. لم تكن تلهث. بل ربما حتى لا تتنفس.

فكّرتُ فيما يمكن أن أسألها عنه. تبادر إلى ذهني أن أعرف متى امتهنت التدليك. التفتُ إليها وأنا أبدأ جملتي فبرقت نظرة عينيها حين التقيتا بعيني. كأنهما عينا جنيّة من جنيّات الأساطير القديمة، اللائي يظهرن كومضة برق، يداهمن بوجودهن الشبحي الواقع، ويبتسمن، رغم كل المعاني المتناقضة التي تحملها ابتساماتهن، قبل أن يختفين.

هل تقرأ طالعي عبر خارطة جسدي؟

استعدت كل شيء، مرة أخرى، وغيّبت ذاكرتي في جنّة الحواس. اكتشفت أنني لن أستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تتلاحق عن سرّ كفيْ تلك الفتاة إلا إذا كررنا التجربة.

***

في غفوتي رأيت الغجرية التي كنت عرفتها يومًا بعيدًا ما، لم أعد أذكره الآن، وفي بلد نسيته تمامًا، لكن ما أذكره منها طولٌ فارع ويدان نحيلتان معروقتان جميلتا التكوين، شعرٌ أسود طويل، ساقان نحيلتان انكشفت حين تَوَسدَتْ الأرض لتمارس حيلتها في قراءة طالعي.

اقتربتْ مني في الحلم. كنت أقف منتظرًا لسيارة أجرة في طريقي لوِجهة لا أذكرها. قالت لي:

هل تريد أن أقرأ لك الكف؟ التفتُ إليها بوجه تعتليه ابتسامة ساخرة. التقت عيناي بعينين من الفولاذ، لهما بريقٌ لامع، فصرت مثل منوَّم من قبل قوى خارقة. عينانِ قويتانِ سوداوان، تغشيان من يتأملهما فلا يبصر سواهما. ناولتها كفي، فأمسكَتْ بها، غير عابئة بفضول المارة. تأملت كفي بعناية، ثم قالت إن خارطة نجمي غير مكتملة. نظرتُ إليها فاغرًا فمي تعبيرًا عن عجزي عن الفهم.

لوَّحتُ لسيارة أجرة مارة، فتوقفتْ أمامنا. أشارت لي أن أركب السيارة ففعلت بلا تردد، وسرعانَ ما جلستْ إلى جواري. قالت للسائق شيئًا بلغة لم أميزها، لكن السائق ذا اللحية الطويلة البيضاء، هزّ رأسه هزات متتابعة ومضى بنا إلى المجهول.

التفتُ إليها ففوجئت بها؛ فتاة في متوسط العشرينيات، أعرف الآن حين أستدعي الحلم أنها لم تكن تشبه تلك العرافة الغجرية كثيرًا، لكني في الحلم كنت أتعامل معها بوصفها هي. وفي الحلم سطعت بشرتها البيضاء عبر فخذيها اللذين انحسرت عنهما تنورة من الـ"جينز" الأزرق؛ قصيرة وضيقة، أظنها كانت ترتديها تحت عباءة سوداء خفيفة. لكن لون بشرتها سرعان ما أصبح قمحيًا، كأن بياضه لم يكن سوى خداع بصر، وبينما كنت أؤكد لنفسي أن المشكلة تكمن في العتمة وفي بصري، إذا ببشرتها تكتسي بلون خمري رائق جميل، وقبل أن أستوعب هذا التغير المباغت أيضًا، سرعان ما تغير لون بشرتها، مرة أخرى، إلى لون نحاسي أخّاذ، جعلها تبدو كغجرية فاتنة.

نظرتُ إليها فأسدلتْ جفنيها قليلًا. انكسرت قوة نظراتها لوهلة، وهنا أتيح لي أن أتأمل جمال العينين الواسعتين. بينما شعرها الأسود الثقيل الناعم أشبه بشعر جنيّة من جنيّات الحكايات الخرافية، يطول وينسدل على ظهرها ويلتف حول خصرها متراكما.

نظرت من نافذة السيارة المضببة والمغطاة بقطرات لامعة من المطر، فبدت النافذة كشاشة أرى فيها مشاهد فيلم تتتابع لقطاته بين أزمنة متفاوتة وأماكن مختلفة الجغرافيا. نمرُّ على مدن حديثة شاهقة المباني والأبراج، سرعان ما ننتقل منها إلى شارع واسع يوازيه وادٍ أخضر فسيح. لكنني لم أتمكن من تبيّن أية تفاصيل، بسبب موجة من ضباب غاضب أحاط بنا من كل صوب.

اختلستُ النظر إليها فباغتني مظهرها؛ إذ أصبحت رأسها صلعاء تماما، ولم أفهم أبدًا أين ذهب شعرها، ومتى سقط. لكن المدهش أن رأسها الأصلع بدا رقيقا. التقت عينانا فوجدتها تحدّق بي بفيض من حنان غريب. أردت أن أضمها، وأتحسس ملمس رأسها. لكني لم أفعل.

نحّيتُ نظري بعيدًا عنها. وامتلكني طائر الأحلام لوهلة كانت كافية لكي تتغير ألوان بشرتها مرة أخرى، فتغدو خمرية، فيما ينسدل شعرها طويلًا حتى قدميها فتبدو كرسولة من زمن قديم، ومخلّصة لأرواح البشر من آثام لم يرتكبوها. افتتنت، فشهقتُ مأخوذًا، رغمًا عني، كشهقة الغريق اللاإرادية حين يخرج من الماء. سددت إليّ نظرة كنت أعرفها جيدًا. نظرة

الجنيّة التي حَذّروني ألاّ تلتقي بعينيها عيناي. حذّروني، بينما لسان حالي يردد أن حَذِرًا، أيًا كان، لا ينجو من قدر.

لست أذكر كيف انتقلنا من السيارة إلى ذلك المكان الفسيح. مرجٌ أخضر من تلك المروج التي تفتتح غابات الحكايات الخرافية. كانت تركض، وأركض خلفها، بينما يساورني الإحساس أنني أهرب منها في الأساس.

كان خيالي يستبق وعيي مدركًا أنني لن أتمكن من اللحاق بها. هكذا طفر الخاطر في وعيي، وأنا أسابق الريح لألحق بها، وإذ بها تصبح في طور طفلة صغيرة لكنها لا تزال تحافظ على سرعة الركض ذاتها، ثم أراها تعلو على الأرض لسنتيمترات تكفي لكي تطير، ويصل فزعي إلى مداه حين تلهمني بصيرتي، من خيالي الذي يستبق وعيي، أو ربما حالة "ديجا فو: Déjà Vu" تملأني يقينًا أنها ستحط على الأرض ثم تقف فجأة، وتلتفت لي مبتسمة ابتسامتها الطفولية الأخيرة، قبل تحولها الدرامي المباغت إلى ذئبة تنتظرني بابتسامة شرهة ماكرة. وهكذا كنت أرى المشهد قبل وقوعه في ذهني، ولا أستطيع التوقف عن ملاحقة الطفلة التي أعرف، يقينًا، أنها ستتوقف بعد لحظات، وتلتفت إليّ في لحظة تحولها المباغت إلى ذئبة، فأي قوة خرافية كانت تدفعني إليها؟

كنت أسمع دمدماتها الصارخة تحدثني بمصيري، بماضيَّ ومستقبلي. في الحلم كنت أشعر بصفاء روحي كامل وكأن روحي تمتلئ بطاقة نور

متوهجة وأنا أرى مستقبلي أمامي كاملًا، بكل تفاصيل السعادة والشقاء. وبين النوم واليقظة كنت أدرك أنني أحلم، لكن قوة خفية غامضة كانت تدفعني للبقاء في منطقة اللاوعي. أمد يدي مستغيثًا بمن يمكنه أن يخرجني من هذا الحلم الكابوس بلا جدوى.

***

كنت نائمًا في غرفة معتمة، لكن شعاع الضوء القادم من صوب الباب المغلق أوحى لي بانفتاح الباب. لم تكن لديَّ أدنى رغبة، ولا إرادة، في الحركة ولو بقدر رعشة إبهام. تيبستُ. رأيتُ ظلالَها بقامتها القصيرة وجسدها النحيف. خلعتْ الروب الذي ترتدي فتحولت من واقع الاحتشام والحياة اليومية، إلى فطرة العري وإنسانيته.

للعري في العتمة همسٌ غامض. صوتٌ يمكن أن يُسمع دون أن تُمس صاحبته. للجسد العاري في العتمة وميض لا تراه سوى الروح، كلّما اقتربتْ مني كلما استبقتُ إحساسي بملمس بشرتها. كانت تهيِّئ جسدي لها، وخيالي يستبق ما رأيته: "توحدٌ دام لروحين". عناق ليبرالي. توحدٌ يمكن وصفه بأنه ثقل المعرفة التي أبتغيٍ بديلًا لخواء الروح والعزلة. أما استباقي لإحساس الفراغ الكامل الذي سوف أعيشه عقب انفصال الجسدين المتوحدين، فقد أطلَقَ من حلقي، في تلك اللحظة، صرخةً مروّعة واحدة ووحيدة، أظنها حملت كل آلام روحي. وذاك لم يكن سوى النداء

الذي تنتظره لكي تشتبك معي جسدًا بجسد وروحًا بروح وعقلًا بعقل، فيما كان بلوغ الذروة نشوة خالصة، حسية وصوفية معًا.

في العتمة أضاء برق مداهم السماء، فبرق عريها الذي أحتويه بين ذراعي صانعا من جسدها أيقونة إيروتيكية ستظل راسخة في ذهني مدى حياتي.

في العتمة غابت الرؤية وحضرت بصيرة الجسدين. تقلّص وجهها في لحظة الإيلاج بملامح ألم وهمّي، وأضافت لتقلص ملامحها ابتسامة غريبة وأغمضت عينيها. أمسكت بفكها، ووضعت فمي على فمها، وأدخلت لساني ليداعب لسانها الرطب الصغير الرشيق. بعد لحظات تحولت وداعتها إلى شراسة ضارية. أنشبت أظافرها في ظهري وهي تثغو وتتأوّه، تصرخ وتتنهد. أحرقتْ شهوتي فيما شرعت تطلب مني أن أعضّ حلمتيها. وحين أولجتها أمرتني أن أضرب عجيزتها. جاءت ضربات يدي أوهن مما توقعتْ، فصرخَتْ ترتجي مزيدًا من قوة الضرب.

كانت مأكمتا إليتها تتحولان من لونهما الخمري إلى بياض شاهق، ومنه إلى الخمري ثم النحاسي والأسمر. فكأنني في مآيرتي لها من دُبرٍ، أضاجع خمس إناث معًا، ولا جواب عن سؤال الرغبة الأساس: من أنتِ؟ من أنتِ؟ أصارع أشباحها الخمسة مُلقيًا ذاتي في لهيب شهوتها، بينما كان شعرها يلعب لعبته المدهشة فيطول حتى يصبح بإمكاني أن أشده من موقعي خلفها، حيث تتكئ يداي على كفليْها، بشكل يتيح لي أن أجتذب

رقبتها للخلف. ثم إذا به يقصر مرة أخرى، تدريجيًا، حتى يختفي تمامًا، كأن جنيًا خفيًا يجتذب كل خصلات الشعر؛ بتعويذة سحرية، فتغدو صلعاء بلا شعرة واحدة.

أستمر في حركة لاهثة هيستيرية دؤوب، أمسك كفليها بقوة، فيما تتجاوب مع هي بمواء الشهوة، وبحركتها الهيّنة التي تدفع بها أردافها نحوي.

***

استيقظت عاريًا، ناعسًا، يساورني الشك في أنني لم أستيقظ بعد. أفتح عينيَّ جيدًا لأتأكد من خلو الغرفة من أحد غيري. أنصت وأمنع تنفسي للحظات. أضع يدي على شعري لأتحسسه وأتيقن من صحوي وتيقظي. أدور برأسي متأملًا الغرفة لأتأكد من عدم وجود أحد.

يغافلني صوت الرعد الذي سمعته في الحلم قبل أن يبرق البرق محييًا جسدها من العتمة إلى النور. أتلفَّت حولي بحذر. فيما تستعيد ذاكرتي اللقطة ووجل قلبي لتواطؤ البرق مع جسدها على روحي.

نهضتُ إلى الحمَّام. تأملت وجهي أمام المرآه فوجدتني مبتسمًا. ملامحي بدت رائقة تمامًا. انتبهت إلى بقعة سوداء صغيرة على صدري بدت لي كوشم صغير. فتحت فمي مفزوعًا، ووضعت يدي اليمنى على موقع الوشم الراسخ على يسار صدري، ثابتًا كأنه نُقش قبل سنوات.

تأملتُ النقشَ في المرآه. بدا رسمًا دقيقًا لوجه الفتاة التي كانت تمسد جسدي. خفق قلبي وشعرت بشيء من الفزع. وبحركة لا إرادية استدرت برقبتي أمام المرآه محاولًا أن أرى ظهري. لم أنجح فاستدرت ونظرت عبر المرآة. وجدت رسمًا لخارطة تشبه جسدًا بشريًا تضاريسه كأنها رمال مترامية في الصحراء موشومة بنفس اللون القاتم. وقبل أن أصرخ مباشرة شعرت بملمس كفٍ خفية تمسِّد ظهري فيتوقف الصوت في حلقي ويقشعر جسدي. يباغتني شعور بالدوار. إحساس مغوٍ بضرورة السقوط، تركت جسدي يتهاوى كأنما أختبر مدى قدرة الكفين على التقاطي في تلك المسافة بين الفراغ وبين الأرض.

موديــل عــارٍ

"ترتدي ثيابها. ثم تخلعها. ثيابها نار. عريها نار. المسامير تذوب. نهر من الحديد. يمرّ تحت الأشجار"

يانيس ريتسوس

الوقتُ تقريبًا منتصف قدح القهوة الثاني. قهوة سوداء سُكّرها أقل قليلًا مما وضعته في القدح الأول، ودخان السيجارة الثالثة يطوف حول وجهي. في هذه اللحظات الاستثنائية للإفاقة الصباحية سمعتُ صوت ارتطام قوي في الشارع. أجفلت، وخرجت إلى الشرفة لأرى سيارة عصرية سوداء تفر بسرعة جنونية، فيما صوت صراخ نسائي مكتوم يتردد في فزع.

كان الهدوء متسيدًا هذا الوقت المبكر من اليوم، ما أتاح لي أن أسمع أصوات أنين السيدة التي ظلت تزوم ألمًا، بينما الشجرة التي تراقب شرفتي تعيق محاولتي لرؤيتها. ارتديت قميصًا على بنطلون "الترييننج"، وخرجت من الشقة. هبطت على الدَرَج بسرعة ووصلت إلى مدخل البناية. هرولت خارجًا، فوجدت فتاة عشرينية سمراء مكوّمة على الأرض، ترتدي بنطلونًا جينزًا وتي شيرتًا يعلوه جاكيت أزرق قاتم من قماش خفيف، ملابسها متربة، فيما تمسك بإحدى ساقيها المثنية أسفل فخذها وهي تزوم ألمًا.

اقتربتُ منها فقالت:

- مِش قادرة اتحرك.

- طيّب طيّب. إيه اللي حصل؟

وبصوتٍ متهدج يمتزج فيه الألم بطيفٍ من الخوف قالت:

- مش عارفه. أنا كنت ماشية جنب الرصيف، سمعتْ صوت عربية سريعة جدا بِتقرّب مني، بَسْ قبل ما ألحق اعملَ أي حاجة، حِسّيت بخبطة جامدة لقتني بعدها طايرة في الهوا.

- إنتي حاسة بألم فين بالظبط؟

- أنا حاسة إن رجلي اتكسرت.

- طيب حاولي بس تقومي وتقعدي على الرصيف، لأن قعدتك هنا خطر.

أشارت بيدها رافضة أي محاولة للحركة. اقتربتُ منها ووضعت يدي تحت ركبتيها والأخرى حول ظهرها لأصل إلى إبطها البعيد عن صدري، ورفعتها على الأرض غير عابئ بصراخها. ثم وضعتها على الرصيف القريب أمام باب البناية.

نظرتْ إليّ بعتاب، فابتسمتُ لها وقلت:

– كده أأمن. ما أخدتيش نمرة العربية؟

– لأ طبعا. أنا لقيت نفسي متكوّمة على الأرض في ثانية.

– طيب أطلب لك إسعاف. والّا تحبّي أودّيكي مستشفى؟

صمتت وظهرت ملامح الحيرة على وجهها وكأنها لا تعرف ماذا تفعل بحياتها ثم قالت:

– أنا الأهم عندي إني أشوف نورا دلوقت.

– نورا مين؟

– صاحبتي. اتصلت بيّا الصبح. كانت خايفة ومكتئبة، ومش قادرة تقعد لوحدها.

– طيب ما تتصلي بيها.

لم تعقب بشيء. فقط ارتخت على الرصيف فجأة وأغمضت عينيها. اكتشفتُ أن سجحات عدة طالت ذراعيها، وكان ذراعها الأيمن ملونًا

بلون أحمر قاتم أظهر نزيفًا واهنًا قريبًا من كوعها. هززتها فلم تتحرك، وسرعان ما سمعتُ صوت أنفاسها تنتظم كأنها تغط في النوم من عدة ساعات.

رغم الدراما وربما بسببها تمامًا، كاد قلبي أن يتوقف من الغيظ. كان بإمكاني أن أكمل قهوتي، وأن أدخل إلى مرسمي لأعمل قبل أن تبدأ حالات الضغط اليومي، واتصالات الصحف والأصدقاء لولا ظهور هذه الكارثة الملقاة على الأرض أمامي الآن.

ماذا أفعل؟ لتذهب هذه الفتاة إلى الجحيم. ما لي وما لها؟ ثمة شيء غير مريح في هذه الواقعة كلها.

لكن ضميري انتفض في اللحظة التالية. ولمّا لم يكن ممكنًا أن أتركها هكذا في عرض الطريق والذهاب إلى الشقة لإحضار مفتاح السيارة، قررت أن أحملها أولًا إلى الشقة ثم أتناول المفتاح وأرتدي ثيابي قبل أن أقلّها إلى المستشفى.

حملتها مرة أخرى. بدا جسدها طيّعًا هذه المرة، فشعرت أنها أخف وزنًا. تأملت وجهها وأنا أعدلها بذراعي. كانت تمتلك وجهًا طفوليًا غريبًا، تتدلى على جبهتها خصلات من شعرها البنّي.

لاحظت أنها تضع قلادة ذهبية رقيقة حول رقبتها بها حرف S، حاولت أخمّن لها اسمًا كلّما صعدت درجتين: سميرة؟ لا لا، شكلها يقول إنها ربما تكون "سولي" أو "ساره" أو "سالي" مثلًا.

توقفت على عتبة الشقة التي تقع أسفل شقتي، وأخذتُ نفَسًا عميقًا قبل أن أتابع الصعود وأنا أردد مرة أخرى: لعلها "سيمون" أو ربما "ساندي". لكن أنت تعرف أن الأسماء أحيانا ما تكون بعيدة عن شخصيات أصحابها. هكذا قلت لنفسي، بينما بدأت أشعر أنني فقدت أي قدرة على التنفس. قلت ربما يكون اسمها سعاد مثلا. أو سناء. أو.. أوووووف. أنا الآن أفكر جديًا أن اطرحها أرضًا لكي ألتقط أنفاسي. قلبي يدق بعنف أشعر معه أنني سأموت في أية لحظة.

تحاملتُ على نفسي، مدى صعودي الدرجات الثماني الأخيرة، حتى وصلت إلى الباب الذي تركته مفتوحًا، ودخلت الشقة، عابرًا الأرضية الخشبية في المدخل، ثم الأبسطة التي تغطي غرفة المعيشة الصغيرة. اتجهت إلى الأريكة المكسوة بالقطيفة الخضراء التي كنت أجلس عليها منذ دقائق، أقرأ الصحيفة وأدخن وأستمتع بقهوتي الثانية.

وضعتها على الأريكة برفق، وأنا أحاول أن أتمالك نفسي حتى لا تسقط من بين يديّ، أو أسقط فوقها حيث شعرت بقواي تخور تمامًا، وبمجرد أن أدرت ظهري لها بدأت أطلق العنان للهاثي، وباغتني صوتها تقول:

– إيه ده. أنا فين؟

استدرت إليها وقلت لها بحس الدعابة وبصوت لاهث ومرتعش:

– لا ما تخافيش. أنا خطفتك.

وجدتُ ملامح وجهها تتقلص، وأصبحتْ، في لحظة، مثل طفلة عمرها عامان، إذ شرعت تبكي بحرقة شديدة.

"يخرب بيتِك. إنتِ شكل أهلك مجنونة رسمي". هكذا قلت، بلا صوت طبعًا.

أما صوتي فخرج بالتالي:

- إنتي بِتْعَيّطي ليه كده؟ أنا يا ستي اللي نزلت لك من شوية لما العربية خبطتك. وجيت آخد مفتاح العربية. بس لما أغمى عليكي لقيت إني لازم أشيلك لحد هنا.

- لأ أنا مش باعيّط علشان كده. أنا باعيّط علشان نورا.

- نورا؟ تاني نورا؟ يا ستي خليكي من نورا دلوقت. إنتي لازم الأول تروحي مستشفى وبعدين نطمّن عليكي ولمّا نخلص من الحكاية دي تشوفي نورا أو تجيلك هيا المستشفى أو أي حاجة.

توقفتْ عن البكاء، ونهضت لتعتدل جالسة. حرّكتْ ساقها اليمنى ثم تأوّهت. قالت:

- لأ شكلها مش مكسورة. أنا قادرة أحركها آهو..هيّا.. شكلها..

ثم تلفتت حولها للحظات، دون أن تكمل ما كانت تقول، كأنها تبحث عن شيء ما، ثم سألتني:

- إنت عندك تليفون؟

- أيوه تليفون أرضي.
- ما عَنْدْكش محمول؟
- لا ما باستخدموش. أنا قاعد في البيت أغلب الوقت.
- طيب ممكن أكلم نورا؟
- ممكن طبعًا. ثواني أجيب لك التليفون.

فكرت أن أخرج من الشقة وأنسى أمر هذه المشكلة برمتها. لكني تحاملت على نفسي. دخلت غرفة النوم وتناولت جهاز التليفون اللاسلكي وخرجت به من الغرفة عائدًا إليها، أعطيته لها واستدرت بسرعة متجهًا إلى المطبخ، فقد كنت أشعر بحاجة جنونية لقهوة ثالثة وسيجارة.

أعددتُ القهوة، واكتشفت أن سجائري بالخارج. فخرجت من المطبخ متجهًا لغرفة المعيشة. سمعتُ صوتها الذي كانت حدة نبرته تعلو قليلًا كلما اقتربت منها:

- طيب أنا مش عاوزاكي تضايقي نفسك. واطمّني. أنا بجد كويسة. بس أنا مش هاقدر أروح المستشفى إلّا لما تيجي.

ابتسمتُ لها مشيرًا للسجائر بجوارها، فابتسمتْ وهي تهز رأسها بمودة مربكة. تناولتُ علبة السجائر وعُدت إلى المطبخ. أشعلتُ سيجارة وبدأت أشعر بتوتر حقيقي. الوقت يضيع. لم أنجز شيئًا في اللوحة التي

أعمل بها. والمعرض النحس لم يبق على افتتاحه سوى أقل من شهر. وبعد ساعة ستبدأ اتصالات الصحف تسأل عن الرسوم المتأخرة للموضوعات. ورسمة الكاريكاتير الأسبوعية للصحيفة التي أعمل بها. أوووووف.

تجرعت جرعة من القهوة مستمتعًا بمذاقها، وسمعت صوت الفتاة عاليًا:

- لو سمحتْ. إنت اسمك إيه؟

خرجتُ من المطبخ، واتجهت صوبها ثم قلت:

- مش هانروح المستشفى بقى؟

- لأ هنستنّى نورا.

- ليه نورا؟

- كده. أصل بصراحة أنا عندي فوبيا من المستشفيات. مجرد ما بادخل أي مستشفى بيُغمى عليًا.

جلست بجوارها وأنا أشعر أنني فقدت مزاجي تمامًا. دخلت في حالة من تلك التي تنتابني عندما يدخل بعض الناس إلى حيِّزي الخاص دون إذن مني. هذا الاقتحام المرعب يصيبني بشلل نفسي كامل.

نظرتْ إلى اللوحات المعلقة على الحائط وسألتني:

- إنت بتِحب الفن أوي كده؟

هززت لها رأسي مبتسمًا، و لم أكن متأكدا من معنى ابتسامتي.

تأملتني للحظات ثم قالت:

- تعرف، إنت شكلك كده زي ما تكون رسام.

ضحكت من قدرتها على الحدس الذي بدا لي عشوائيًا في كل الأحوال وقلت لها:

- أنا فعلًا رسّام.

ضحكتْ ببراءة، والتمعتْ عيناها بنظرة سعادة ساذجة، فسّرتُها بفرحة انتصار قدرتها على الحدس.

- بجد؟ يعني بترسم لوحات وكده يعني؟ أنا كنت حاسة كده. طيّب أنا نفسي أطلب منك طلب. بس يا ريت والنبي ما تكسفنيش. إنت ممكن ترسم نورا؟

- أرسم نورا؟ هوا أنا كل ما أقول لك حاجة تقولي لي نورا؟ نورا نورا!! نورا مين؟ طب ليه ما أرسمكيش إنتي لو كنت عايز أرسم حد أصلا؟

صمتت وظلت واجمة. بدت كأنها تعاني من الحيرة. ثم قالت أخيرا:

- بصراحة لازم أقول لك على سِرّ.

دخلتُ غيمتي الباطنية وأغلقت على نفسي. أحسست أنها ثرثارة. ففي حالة كهذه لم يكن أمامي إلا أحد حلين: إما أن أخرج من المنزل وأتركها تتحدث للجدران، أو أن أحملها وألقي بها على السلم وتنتهي

علاقتي بها للأبد، أو أن أظل جالسًا في مكاني وأتقوقع على ذاتي خشية أن أفقد صوابي وأفعل أيًا من الخيارين الأوَّلين.

لا أعرف كم بقيت في قوقعتي الداخلية؛ يأتيني صوتها مثل وشيش بلا معنى، فيما أحلق مع أفكار المعرض الذي يكاد أن يفقدني الوقت صوابي باقتراب موعده يوما كل يوم.

***

أخيرًا جاءت نورا، لكنها فجّرت مفاجأة جديدة. فبعد حوار طويل وممل فهمت أنها تريدني أن أرسمها في مدى ثمانية وعشرين يومًا، لأنها قررت أن تنتحر بعد ثلاثين يوما!

إيه العالم المجانين اللي ربنا ابتلاني بميتين أبوهم ع الصبح دول؟

لم أعد أذكر تفاصيل قرارها بالانتحار، ليس فقط بسبب تفاهة الحوار الذي دار بيننا، لكن أيضا لأنني انشغلت بها. لها وجه من تلك الوجوه التي لا تُنسى، شعر أسود ثقيل مموج، وملامح لا يمكن القول عنها إنها جميلة، لكن اجتماع تقاطيع الملامح الناشزة معًا يمنحها جاذبية خاصة. أما السبب الثاني لعدم اهتمامي بكل ما قالته نورا عن الانتحار، هو أنني لم آخذها على محمل الجد.

على عكس الكلمات القليلة التي تبادلناها بالإنجليزية قبل أن نخرج من الشقة إلى المستشفى مباشرة. بالأحرى كانت همسات تنقلت عبر

أذنينا كإشارات: "لا تخبر أحدًا بالحقيقة. يجب أن ترسمني خلال 12 يوما فقط، لأنني سوف أنتحر صباح اليوم الثالث عشر، لكن اكذب عليهم حتى لا يحاولوا إنقاذي". "ألا تخشين من أن أحاول إنقاذك؟". "لا، لأنك سوف تنشغل برسمي حتى آخر يوم في حياتي".

ومثل المقامر؛ قلت لها دون أن أقصد ذلك على الإطلاق: "لا يمكنني أن أرسمك في 12 يومًا إلا إذا رسمتك عارية تماما".

لكنها باغتتني برد فعل غير متوقع: "موافقة جدًا.. متى نبدأ؟".

– "اليوم مساء، هل هذا يناسبك؟". "اتفقنا".

***

بعد ساعة كاملة من وقوفي أمام اللوحة البيضاء، بينما جسدها العاري ممددًا في وضع استغرق منا نحو ربع ساعة لنتمكن من تثبيتها عليه، وجدت نفسي أقف منهكًا، عاجزًا عن فعل شيء. حاولت أن أتحرر من طغيان جسدها. لم يكن جسدًا مثاليًا أو نموذجيًا، فهناك مثالب جمالية عديدة لا تتوقف عند الترهل المبالغ فيه في بطنها الصغير، بل يمتد إلى الفخذين اللذين تراكمت الدهون بهما، لكن مع ذلك كنت أرى في الجسد كاملًا كيانًا حسيًا رهيبًا. وبدأت أتامله كخطوط وزوايا وظلال، وأدرس مواقع العَضَلات وتشريحها، لكي يتحول من واقعه المادي إلى مستوى الفن والتشكيل، حتى تطاوعني يدي في نسخ هذا الجسد بكل ما يضج به من حيوية، لكني لم أنجح.

قلت لها : "مش قادر. لازم نمشي من هنا حالا". نظرت إليّ وكأنها جاءت من عالم آخر، ثم تحركت أخيرًا بعد فترة طويلة من وضعية جسدها التي تصلبت عليها بإصرار كنت أحسدها عليه. ثم قالت بهدوء: "أوكي".

نهضتْ وارتدت ملابسها بسرعة ثم دخلتْ إلى الحمّام، وخرجتْ بعد قليل، فيما كنت جالسًا أدخن في انتظارها، وقالت: "أنا جاهزة".

***

تذكرتُ هذه الحكاية، أو بالأحرى تذكرت هذه التفاصيل الدقيقة، فالحكاية تعيش في داخلي منذ سنوات، بينما أجلس في مقهى سيئ الإضاءة، على الرغم من جلوسي قريبًا من نافذة مطلة على شارع صاخب نوعًا ما، وبجواري تجلس شابة في أواخر العشرينيات، وجهها يذكرني بأرنبة جميلة، بسبب بروز شفتها العليا، وتطل عيناها العسليتين على العالم عبر عدستي نظارة ذات إطار بلاستيكي أسود أنيق. ظلّت تلاحقني منذ حضوري إلى هذه المدينة الأوربية التي كنت أزورها لكي أعرض عددًا من لوحاتي في أحد الجاليريهات.

تهربتُ من اقتراحها لتناول القهوة فى ليلة الافتتاح، ولاحقتني حتى تمكنتْ مني لتجري معي حوارا صحفيًا سريعًا في ركن بعيد عن الزحام، وقبل أن تنهي أسئلتها، اعتذرت لها بسبب ضيق وقتي فانصرفتْ.

لكني وجدتها في بهو الفندق في صباح اليوم الثاني تقف في مواجهتي مبتسمة:

- أنا أنتظرك من ساعتين كاملتين، فلست أعرف متى ستقرر الخروج اليوم.
- أهلًا، لكن ذكّريني ماذا تريدين مني؟
- إجابة السؤال الأخير من المقابلة الصحفية التي أجريتها معك.
- وما السؤال؟
- من صاحبة الصورة الناقصة التي تكررها في أعمالك كلها؟
- شخصية خيالية.
- ولماذا تظهر أنت في كل اللوحات بوجهك الذي تختلف ملامحه تماما من لوحة إلى أخرى فيما تنظر إلى مرآة؟
- هل تتحدثين عن أعمالي حقا؟ لوحاتي ليست كلاسيكية أو حتى واقعية على هذا النحو.
- أعرف، لكن حتى أكثرها تجريدًا لم تخل من روح تلك الفتاة ولا من وجهك المعكوس في المرايا.

شرعت ذاكرتي تستدعي التفاصيل التي استدعيتها قبل قليل على الرغم من اندهاشي من إلحاح هذه الفتاة على معرفة هذه التفاصيل.

تأملتُ وجهها الذي لاحت ملامحه لي كأنها مزيج بين الملامح الشرقية وبين لمسة غربية تتجلى في لون العينين المحيّر.

قلت لها:

– ما الذي يهمّك في كل هذه التفاصيل؟

– لا أعرف، ثمّة شيء خاص جدًا يربطني بلوحاتك، وبتلك الفتاة التي تحتل جانبا كبيرًا من أعمالك، لا يمكنني أن أكتب الموضوع على النحو الذي أريد دون أن أتبين حقيقة ما أشعر به.

***

في المقهى جلسنا متجاورين. خلعتْ الجاكيت الجينز، وبقيت ببلوزة بيضاء خفيفة بلا أكمام تظهر جمال كتفيها ونحرها ومفرق ثدييها. أخرجتْ من حقيبتها علبة سجائر والتقطت سيجارة، أشعلَتْها ونفثَتْ دخانها ثم نظرت في عيني وسألتني:

– عجبك جسمي؟

نظرت إليها بتوتر. كنا لا نزال في انتظار قدحي القهوة الأمريكية السوداء. أخرجت سيجارة من علبة سجائري وأشعلتها ثم نفثت دخانها وقلت لها:

- إنتي عايزه تنتحري ليه؟
- جاوبني أجاوبك.

تذكرت ربلتي فخذيها الممتلئتين، وظهور بعض النتوءات الدهنية فيهما أحيانا، لكني قلت:

- أيوه عجبني جسمك.

نظرت إليَّ باهتمام. ثم حوَّلت بصرها عني وتجولت بعينيها في أرجاء المقهى بشرود و لم تعقب بشيء. لكنها، بعد لحظات أخرى من الصمت القلق، قالت:

- كويس. لازم تبيّن الحسنة اللي تحت صدري اليمين. دي علامة مميزة.

هززت لها رأسي وأنا أستعيد صورة الحسنة بين نهديها، والنمش الطفيف أعلى النهدين.

جذبتْ من سيجارتها نفسين متعاقبين. استندتْ بكوعها على المنضدة ورفعت ساعدها، فانسدلت أساورها من الرسغ إلى الساعد. تأملت أظافر أناملها المطلية باللون الأحمر، و لم أنطق بشيء. وأخيرًا نظرتْ إليَّ وقالت:

- كفاية كده.
- كفاية إيه مش فاهم؟

- أنا باجاوبك على سؤالك. مش عايز تعرف ليه أنا قررت أنتحر؟ أنا زهقت من حياتي. ما فيش جديد. بس الأهم من كل ده، واللي يمكن يهمك تعرفه.. إني من زمان أوي قررت أبقى صاحبة القرار الوحيد في كل شئون حياتي. وبعدين بقالي فترة بدأت أحس إن الموت أهم قرار ممكن ياخده الشخص. وعلشان كده قررت أموت في الوقت اللي أنا أحدده.

تأملتها قليلا. شعرت بأن ثمّة هالة تحيط بها تجعل الاقتراب منها معديًا بحب الحياة. فكيف لمثل هذه الفتاة التي تبدو أنها لا تعيش مآسيَ من أي نوع، أن تفكر في الانتحار؟ قلت:

- أنا بصراحة اكتشفت النهارده إني مش هاقدر أرسمِك.
- ليه بقى كده؟ إحنا مش اتفقنا؟
- اتفقنا صحيح، بس اكتشفت إني بجد مش قادر. فكرة التناقض بين إحساسي بحيويتك وحبك للحياة، وبين إنك مقررة الموت بعد 12 يوم مش مخليّاني أقدر أرسمك.

نظرتْ إليّ نظرة يائسة، ثم سرعان ما لمحتُ طيفًا من رجاءٍ حار يشع من عينيها ويلوّن صوتها قائلة:

- أرجوك افهمني. الموضوع ده ما فيش فيه أي حاجة مأساوية. بالعكس. أولًا إنت ما تعرفنيش علشان تزْعل عليّا لو مُتّ. ثانيًا.. أنا سعيدة جدًا إني أخدت القرار. أنا عملت كل حاجة كان نفسي أعملها.

صمتتْ قليلًا كأنها تستعيد ما فعلته أو لتختبر وقْع الجملة عليّ. لم أبد أي رد فعل، كأني ما زلت أنتظر ما ستقوله فأكملت قائلة:

- اكتشفت بَسْ إن الحاجة الوحيدة اللي كانت ناقصاني هياه إني أترِسم عريانة. يعني إنت هتحقق لي الأمنية اللي هتخليني أحس فعلا بالسعادة الكاملة قبل ما أموت.

اقتربتْ منا نادلة نحيفة، يلتصق بها قميصها الأبيض محدِّدًا تضاريس جذعها الصغير، كما تلتف تنُّورتها السوداء بالغة الضيق على خصرها بصرامة، وتلتصق بفخذيها النحيفين. كانت تمسك بصينية تعلوها القهوة المطلوبة. وضعتها أمامنا فصمتنا، حتى غادرت، وقلت لها:

- طيب إيه اللي ممكن يخليكي تراجعي نفسك وتفكري تتراجعي في موضوع الانتحار ده؟

- شوف، حاول تفهمني كويس، أنا الموضوع ده مفكّرة فيه من زمان، وحتى مقررة الطريقة اللي هاموت بيها. بس مش هاقول لك عليها طبعًا. وعمري من يوم ما أخدت القرار ما فكَرت مجرد تفكير في التراجع. وما اعتقدش إن فيه أي حاجة ممكن تخليني أتراجع عن القرار ده. أنا فعلا غبية إني قلت لك على الموضوع ده من الأصل.

صمتنا قليلا، فعادت تشعل سيجارة أخرى بعد أن أطفأت سيجارتها ثم نفثت دخانها وقالت:

- تعرف؟ وأنا باكلمك دلوقت فكرت لحظة إني ممكن أراجع نفسي فعلًا في موضوع الانتحار ده لو عجبتني اللوحة اللي إنت هاترسمها لي.

- اشمعنى؟

- يعني، يمكن لأن دي هتكون أول فرصة أشوف فيها نفسي بعيون حد تاني. هاشوف شكلي زي ما إنت شايفني. أو شكلي اللي أنا ما اعرفوش.

في اليومين الأوَّلين كنت أرسم بكل طاقتي الذهنية، وبعد أن تنتهي من الوقت المخصص لجلوسها أمامي، أعود للوحة لكي أعمل على التحديد والضوء والظل، وعلى التفاصيل التي تكون مختزنة في ذاكرتي، لا أحتاج خلالها لوجودها. لكني بدأت أشعر منذ اللحظة التي تنهض فيها من على الأريكة بشيء غريب. إحساس بالعدم. بلا جدوى أي شيء، وأحيانًا بأن الموت بالفعل هو فكرة جيدة لحل مثل هذا الخواء.

في منتصف سيجارتها الثانية بدت شاردة، تنظر من النافذة لكنها بدت غارقة في عالمها الداخلي. ثم التفتتْ لي وقالت:

- عايز تعرف ليه أنا عايزة أنتحر؟

- أكيد، طبعًا جدًا.

صمتت للحظة. بدت مترددة كأنها لا تجد كلامًا يناسب شخصًا غبيًا

ليفهمه، ثم قالت بتردد، وبيأس من يعرف أنه لا أمل في فهمه:

- المرايا.

تأملتها قليلًا وبقيت صامتا، ولمّا لم تقل شيئا قلت:

- طب إيه؟

وانفجرتُ ضاحكًا، فابتسمتْ ثم قالت موضّحة:

- قصدي يعني إن ما حَدّش بيبص في المرايا.

- يعني إيه؟

صمتت وشردت، وتلفتتْ حولَها في قلق، ثم نفثت دخان سيجارتها وأطفأتها. أخيرًا حدّقت في عيني وقالت:

- كل ما أتكلم مع أي حَدّ عن المصايب اللي حوالينا يقوم يسب ويلعن، وينمّ على ميت واحد يوصفهم بأنهم فاسدون وأولاد ميتين كلب، بس ما فيش أي حد، ولا واحد، حاسس إنه جزء من المشكلة.

تأملتُ عينيها الحزينتين، وشعرت بشيء غامض يتحرك في روحي. إحساس لا يمكن تفسيره. شجن عابر، أو حزن، كأن روحي أدركت ما تقوله، لكن عقلي لم يستوعبه تماما. أدركت حينها أن الروح أذكى من العقل، أو على الأقل؛ أن العلاقة بين الإحساس والإدراك تشبه العلاقة بين

الصوت والضوء، الروح مثل الضوء أسرع إدراكا.

عندما برقت هذه الفكرة في ذهني وجدت حدقتي عينيها تتسعان. كأنها أدركت ما يجول بخاطري. مرّت بين عينينا لمحة من حوار خافت سريع من تلك الحوارات التي لا يمكن للغة أن تترجمها.

قالت: ما قابلتش حد قال لي إنه غلطان. إنه جزء من المشكلة. كل واحد فاكر إن ربنا ما خلقش حد غيره. وكل واحد فاكر إنه ملاك ما بيغلطش. أمّال الخراب اللي إحنا فيه ده سببه إيه؟

- يعني عايزه تموّتي نفسك علشان الخراب اللي إحنا فيه؟

نظرت إليّ نظرة تغيّرت فيها ملامحها، ومرّت في عينيها لمحة استغراب كأنها تراني في هذه اللحظة لأول مرة ثم قالت:

- إحنا ممكن نغيّر الموضوع على فكرة.

- طب إيه طيّب؟

- ما فيش حاجة. ما فيش مشكلة.

رمقتني بنظرة لمحتُ فيها ما بدا لي لونًا من الشفقة والاستغباء. أحبطني ذلك. لكني فكرت أنني سأثبت لها العكس فقلت:

- أنا متشتت الصراحة. هوّا إنت فاكره إن اللي بتفكري فيه ده عادي؟ لا طبعا. بس لو عايزاني أعتذر عن غبائي ممكن أقول لك أنا آسف يا ستي.

نظرت لي بدهشة، ثم ابتسمت ابتسامة خافتة سرعان ما اتسعت، وهزت يديها وهي تقبض كفيها بقوة فصلصلت أساورها بينما هتفت هي بنبرة صوت حادة:

- يسسسسسسس.

انطلقت عدة علامات استفهام كفقاعات لا يراها أحد على رأسي، لكن يبدو أنها لمحتها! فضحكت وقالت لي:

- أخيرًا فيه حد مستعد يعترف بغلطه، ويعتذر؟! آهو إنت كده أخيرا فهمتني.

ضحكتُ سعيدًا ببراءة. أحسست أنني مثل طفل يتلقى التدليل من أمه فينتشي بالاستحسان الذي يغذي أنانيته القاتلة المخفية تحت ستار الطفولة.

قالت إنها لاحظت أن كل من تتحدث معه: الأصدقاء، وهم كُثُر كما وصفتهم، وصديقتها الأنتيم، وما زلت أذكر اسمها، رغم أنها لم تنطق به سوى مرة واحدة عابرة مرددة إياه برقة: "طيف"، وحتى سهام؛ التي كانت السبب في تعرفي إليها، والعشاق، وذكرت لي قائمة أسماء، ثم الزملاء والناس في الشارع والمذيعين في التليفزيون وغيرهم وغيرهم، كلهم جميعا يتحدثون كأنهم ملائكة. كأن كلًا منهم يعرف تماما مأساة المجتمع، وأنه وحده الذي يسلك سلوك الأنبياء، رغم الجهل الفاضح الذي يقطر من ألسنتهم.

تحولت ملامحها إلى جديّة صارمة، بل وأحسبها اكتست بشيء من الغضب، وارتفعت نبرة صوتها بشكل لافت للنظر وهي تقول إنها لا تستطيع أن تعيش في مجتمع يكذب على نفسه بكل هذا الإلحاح. مجتمع يجلد نفسه دون أن يحاول تلقي العلاج أو أن يعترف بمرضه؛ لأن كل شخص يحيل المرض وأسبابه على غيره، أو يتحول إلى حالة هستيريا تَدَيُن شكلي ليحاول حل مشكلته وإقناع نفسه أنه في معسكر المتدينين، وبهذه الاتهامات يحاول الجميع أن يتطهروا، بينما كلهم يكذبون على أنفسهم، والنتيجة أننا نهبط إلى الحضيض.

قلت لها: كلام معقول جدًا. لكن أكيد فيه ناس زَيِّك عندهم استعداد يعترفوا بأخطائهم ويعالجوا مشاكلهم.

قالت: مابقاش فارق معايا. في النهاية طالما مالناش صوت أنا وكل اللي بيعترفوا بأخطائهم ويقفوا قدام المرايا كل يوم، يبقى الموت أكرم لنا. على الأقل بالنسبة لي.

ابتسمتِ لها، فابتسمتْ ابتسامة غامضة. لمحتُ بها مزيجًا مؤلمًا من الحزن والخوف.

قلت: لكن يعني القرار ده حُكم بالموت على الشخص الخطأ.

قالت: إزاي؟

قلت: يعني فيه ناس كتير من اللي بتحكي عليهم هُمَّه اللي لازم يموتوا أو على الأقل يختفوا من حياتنا. مش إنت ولا اللي زيِّك.

ابتسمت ثم قالت:

- تفتكر؟ إحنا في حالة عمى حقيقي. ما فيش حدْ عايز يِتْعب نفسه ويحاول يشوف بجد، واللي بيوجهوا تفكير الناس كلهم على بعض بلاوي. مرتزقة واخدين ألقاب إعلاميين وصحفيين. كل واحد بيقدم نفسه للعالم على إنه أكتر شخص مثالي في العالم، وبعضهم حتى بيقدم نفسه على إنه نبي. لكن الحقيقة إن كل واحد منهم مصيبة كاملة من النرجسية والأنانية المريضة والجشع والفهلوة والاستعداد الكامل لقتال الخصم لو حسّ إنه بينافسه.

***

كانت تتجول عارية في البيت بعد أن اعتادت ذلك، في محاولة منها لمقاومة تقلصات عضلاتها بسبب الجلوس عارية أمامي لساعات بلا حركة، تتأمل غرفة النوم. تطالع بعض الكتب عن الفنون، أو تُعدّ القهوة في المطبخ، وتجلس لقراءة كتاب مما يعجبها حتى أطلب منها العودة مرة أخرى.

لكن ما كان يحيرني فيها هو نظرة عينيها التي كانت تسددها إليّ حين أقوم برسمها. كنت أشعر لحظتها أنني العاري، رغم أنني لم أستطع أن أقف أمامها عاريًا إلا حين سمحت لي بذلك، واقتربت مني في الليلة الأخيرة. استجبتُ لها لأنني كنت أعرف أنني قد أتحرر من إحساسي بأنها تبدو دوما كأنها تعرف عني ما لا أعرفه عن نفسي.

تأملت اللوحة الناقصة بأسى. كانت نورا ترقد عارية، الجسد لا تظهر تفاصيله بشكل جيد، لكنها في اللوحة تمنح جسدها، لمن يرى، ممددًا على أريكة مخملية حمراء، تسطع بالضوء الذي ينعكس من إضاءة مركزة عليهما فيما بقية الغرفة تغرق في العتمة.

كانت نورا في اللوحة تضطجع على جنبها الأيسر، بشكل يُبرز نهديها والحسنة التي تصنع ثلاثية فنية مع الحلمتين الداكنتين اللتين تتوسط كل منهما جزيرتي الثديين الأقل دكنة، ينسدل شعرها على كتفها وذراعها، وتغمض عينيها غافية على ابتسامة غامضة كأنها تحلم بما تمنت أن تراه في صحوها بلا جدوى.

***

لا أظن أنه من حقي أن أتحدث أكثر من ذلك، ليس مسموحًا لي. اللوحة العارية لنورا لم تكتمل، ليس لأنها انتحرت قبل أن أنتهي منها، ولكن ربما لأن رغبتي في رسمها هي التي ماتت أولًا.

فقبل ثلاثة أيام من انتهاء المدة المحددة للرسم كانت تتمدد في المكان المخصص لها، حيث اعتادت أن تجلس ثابتة لكي أرسمها. لكنها فجأة تمددت، نامت في مكانها. لم أحاول أن أوقظها، فقط وجدت نفسي أتعرّى بدوري، وألقي بنفسي إلى جوارها. اقتربتُ منها حتى التصقتُ بها، صدري يعانق ظهرها، وبطني أعلى أردافها ثم الفخذان. كان الفخذان الممتلئان يفوحان بالدفء والحسية.

لاحظت أنها كمن استيقظ للحظات وأدرك ما يحدث، لكنها لم تجفل أو تمانع بالعكس، دفعت بجسدها نحوي قليلًا، ثم استغرقت في النوم وانتظمت أنفاسها.

وجدتُ في جسدها ملاذًا، أردت أن يشعر كل جزء من جسدي بعريها. وضعتُ يدي على خاصرتها وألصقتُ صدري بظهرها، وجعلتُ من بطني وسادةً لردفيها، ولم تتحرك هي. تسلل عبق جسدها إلى أنفي، فدفنت رأسي في شعرها لأتنشقه. لاحظتُ أنها، بين آن وآخر، ترتجف ارتجافة واهنة، وأحيانًا تنتفض إحدى ساقيها انتفاضة مباغتة دون إرادة منها، ثم سرعان ما شعرت بتعرق جسدها حتى إن صدري صار مبتلًا تماما بعرقها.

احتضنتها. بالأجرى تشبثت بها. كانت ترتجف، ثم سمعت أنّات خافتة تصدر من جوفها دون أن تفتح فمها. نهضتُ وأسرعت صوب غرفة النوم، وأحضرت بطانية عدت بها لأغطيها بها.

أدركت في تلك اللحظة أنها تعاني. وأن روحها تعيش صراعًا خفيًا عنيفًا. شعرت بالهلع من أنني أشارك هذه الفتاة في جريمة قتلها لنفسها، دون أن أعرف الدافع الحقيقي للجريمة على أي نحو. أحسست أن قرارها بالموت ليس هيّنًا كما قد يبدو، أو كما تحاول هي أن تبديه. كانت تعيش صراعًا داخليًا عنيفًا وتكبته بقوة.

جلستُ على الأرض قريبًا منها، وفكرتُ فيما قالته عن دوافعها للانتحار، كنتُ أتأرجح بين التسليم الكامل بكل ما قالته، وبين التكذيب

التام لكل ما سمعته منها، دون أن أمتلك الوسيلة التي تهديني ليقين بين القناعتين. أحسست بالبرودة تعربد في أوصالي. ورحت أرتجف كمريض حمى، لا أستطيع السيطرة على جسدي نهائيًا.

***

أحسست بالتشوُّش، وبجبيني مبتلًا تمامًا. مسحتُ العرق بكفي فلاحظت برودة جبيني. نظرت للفتاة التي كانت تحدِّق فيَّ بشكل غريب.

قلت لها: هذا كل شيء.

- ماذا؟

- هذا كل ما أتذكره.

- والفتاة؟ هل ماتت فعلا؟ هل انتحرت؟

- أي فتاة؟

- نورا.

- بصراحة لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟ إذا لم تكن تعرف فمن إذن الّذي يمكنه أن يعرف؟

- هذه قصة قديمة أصبحت مشوشة في ذهني تماما، حتى إنني في الحقيقة لا أعرف إذا ما كان ما حكيته هذا حقيقيًا أم لا. فأحيانا

نتمنى أشياء أو نحلم بها ونتوهمها، ويحدث في بعض الأحيان نوع من التوحد بين أحلامنا وتفاصيل حياتنا.

صمتت الفتاة وبدت على ملامحها الحيرة. لكنها لم تنطق بشيء. وظلت تحدق عبر النافذة بشرود. وفعلتُ مثلها.

وجدت نفسي أردد: "ورأيتُ نورًا في الغرف".

مرت العبارة على ذهني غامضة، فرحت أتمتم بها همسًا كما أردد جملًا غامضة كثيرة، بين آن وآخر، تحط على عقلي مثل خفاش أعمى، فأكررها مثل المجانين بلا هدف. "ورأيتُ نورًا في الغرف. ولم تلمس يدي يدها، ولا شفتاي شفتيها".

تذكرت أنها بعض جمل مبتسرة في قصة لـ"هرمان هِسّه" أوحت لي بلوحة لنوافذ خالية لغرفة مضيئة. كانت الجملة توحي لي بصورة أرى فيها عشيقًا يبحث عن امرأة ما كانت تقف في النافذة واختفت، أو يبحث عن امرأة عبر نوافذ منزلها، أو، وهذا المعنى المقصود، أنه أحَبّها ولكنه حب من طرف واحد، ربما حتى دون أن تعرف هي، وفي الليلة الأخيرة التي لن يراها بعدها، توقّف قريبًا من منزلها لكي يَلمحها للمرة الأخيرة، عبر النافذة، لكنه لم ير سوى نور الغرف الخاوية.

جاءني صوت الفتاة لينتزعني من هواجسي. قالت:

– هل تقصد أنك رسمت ما تمنيت حدوثه؟ امرأة حلمك أو عمرك كما يقولون؟

نظرت إليها شاردًا وفكرت في كلماتها قليلًا ثم قلت:

– لوحة تنبؤية؟ هذا ما تقصدين؟

التفتتْ الفتاة حولها كأنها تتأكد أن أحدا لن يرى ما ستفعله، وبحركة خاطفة فتحت زرارين من قميصها، لتكشف عن نهديها المتحررين، واقتربت مني كأنها تتعمد أنِ تكشف لي صدرها، لكي أرى العلامات.

– انظر جيدًا. ألا تذكِّرك هذه العلامات بأي شيء؟ هكذا قالت متهدِّجة الأنفاس.

نظرتُ إلى النهدين، ثم لاحظت الحسنة البارزة بين الحلمتين الداكنتين المتصلبتين.

كان حلقي جافًا. لكن يديَّ لا تقويان على الوصول إلى كوب الماء البارد الموضوع على المائدة أمامي، تمامًا في منتصف المسافة بيني وبين النهدين المارقين.

ما يراه النهد

ضعي قلبك مقابل قلبي. حتى
أنصت لحبك يدعوني للنسيان. ضعي
فمك في فمي حتى يذوب كل شيء
في الضباب.

بلانش شوماكار

على جسر خشبي عتيق مُطلّ على ضفة مياه ضحلة، تسبح قريبًا منه سبع بطات، في سرب منتظم، ظهرت فتاة عارية، عشرينية خمرية، رشيقة، متصالحة مع الجسد النضر، أوْلت ظهرها للبحيرة المعشوْشبة، ثم سارت بخطوات رشيقة، لكنها غير متوازنة. توقفت في منتصف الجسر الخشبي الذي يعتبر ممشى خشبيًا يمتد حتى يصل إلى مرسى القوارب الصغيرة القادمة للشاطئ عبر البحيرة.

استلقت على ألواح الخشب التي تشكل جسد الجسر. وبهذا منحت جسدها للشمس، وتوجه نهداها يتأملان السماء بعيني الحلمتين الحوراوين، إذ تنظر كل حلمة إلى جهة، فاكتست السماء بأزرق ساطع وتخلصت من أي حُجب.

لم يكن يعنيني سوى الإنصات إلى الحوار الهامس بين لسان النار والشمس، وإلى غَزَل السماء للنهدين. كنت أريد أن أسأل النهد عما يراه بعينيه في السماء. من بين أعشاب البحيرة اعتبرت مهمة الصيد التي جئت لأجلها انتهت، وخلعتُ ثيابي وألقيت نفسي، بحذر، في المياه الباردة، وسبحت ببطء باتجاه الجسر، كأنني مجذوب بفعل نداء باطني غامض.

اقتربت من شجيرة عشوائية قرب الجسر واختبأت. حبست أنفاسي. نبّهتُ حواسي جميعا وأغمضت عيني، ورفعت تركيزي إلى ذروته؛ أملًا في أن تلتقط أذناي همسًا ينقل به الجسد إليّ ما يراه النهد.

استعدتُ كل ما خبرته في رحلاتي الداخلية إلى أعماق الروح، والوعي، مستفزًا كل قواي الداخلية، مُركِّزا على حاسة السمع. كانت غيومٌ صفر تبرق في عمى عيني المغلقتين من أثر الوهج الساطع للشمس. وكنت أبتغي الوصول للإظلام الكامل، للعتمة التامة التي تسبق تفجير الضوء الداخلي لروحي، حتى أدرك أنني أصبحت قادرًا على توجيه حواسي باطنيًا.

تولدت لديّ رغبة لحوح في أن تقع معجزة سحرية تجمّد البطات التي

كانت تسبح قريبا مني، لأنها كانت تشوش وعيي، ويتعالى صوت مرورها الرهيف في مياه البحيرة، ليصبح هديرًا.

شعرت بلسع الشمس على وجهي لكني تماسكت، رغم الإحساس المتزايد باحتراق جلدي، فقد كان تركيز حواسي يرفع من إحساسي بكل شيء من حولي.

وهكذا كنت أقف على بعد نحو ثلاثة أمتار من تلك الفتاة العارية، غارقًا في المياه حتى رقبتي، تاركًا خلفي على الشاطئ، سنارتي، وثلاث سمكات تلتمع بألوانها المزيج من الفضي والرمادي، ميّتات بلا حركة، وصندوقي الصغير الذي يضم أدوات الصيد، أحاول أن أتغلب على مشاعري الحسية السطحية بالمياه التي تغمرني، وبأشعة الشمس التي تلسع وجهي، وبملمس الأرض الطينية الرطبة التي تنغرس فيها قدماي، وبهسهسة الشجيرات وحفيفها المستمرين من حولي، ومن رقرقة المياه التي تتسبب فيها الحركة المستمرة لسرب البط القريب.

استدعيت قواي الداخلية بعناد، حتى غاب إحساسي، تدريجيًا، بما يدور حولي، وبدأت أشعر بطنين الصمت يعزلني عن أصوات العالم الخارجي؛ استعدادًا للإنصات لصوت عقلي الباطني، العاقل الكبير الذي يعيش بداخلي، المدفون في أعماقي، بتأثير الجينات البشرية والسلوك البشري الخفيف المعتاد.

حين تحول العمى البصري عندي من الحُمرة المختلطة بالأسود والأصفر، وبدأت مخيلتي تستعيد العتمة التي تسبق الرؤى. كان عليّ أن

أزوِّد نفسي باليقين، وأؤكد لها أن رحلتي الباطنية إلى ذاتي وصولا لعمق اللا وعي، ليست سرابًا، فقد كنت أعرف أن هذه مرحلة من رحلة طويلة يجب أن تنتهي بتحول كياني كله إلى حالة من الإنصات الخالص، بحيث يتسنى لي أن أنصت إلى ما يراه النهد.

رأيت النهد في صورة الجسد الناصع الممدَّد في مخيلتي يرمقني بفضول عبر عينه الوحيدة ممثلة في تلك الحلمة الداكنة. اعتبرت أن تلك النظرة التي يسددها النهد إليَّ، ليست سوى إشارة. علامة فارقة في رحلتي الباطنية الممتدة.

أدركت أنني بلغت مرحلة من القوة الباطنية التي تكفي لأن أرفع تلك الفتاة من على الجسر بقوة عيني لو شئت، بحيث تبدو كأنها تطير في السماء. لكن ذلك لم يكن هدفي، فقد تدربت طويلًا، وأعرف مشقة الدخول في مثل هذه الرحلات الداخلية للروح والوعي، وهي المشقة التي لا يمكن أن تُبذل لمجرد العبث.

في رحلتي الباطنية تبيّن لي أن هناك صوتًا آخر، لا يمكنني التعرف عليه بنفس الوضوح، رغم إنصاتي بقوة وتركيز مستمرين، كأن هناك ما يشوِّشه، أو لأنني التقطت همس النهد واعتدته.

لكن النهد باغتني بارتفاع حدة ذبذبات صوته، مغطيًا على ما سواها ورحت أنصت كلي: "أرواح تطوف، تحلّق، صعودًا، والبعض يقترب. شأن الهوى. تكامل واكتمال. وتماثل، أن نهدًا يعشق آخر، أن نهدًا يطربه عشق شفتين حالمتين".

تشوشت، ولم افهم شيئا مما مر في باطن أفكاري ووعيي. وانقطع تركيزي وأفقت من رحلتي الباطنية. هل كان ما سمعته الآن هو ما يبتغي النهد قوله؟ أم أنني لم أفهم تماما معنى ما يبتغي أن يقول، أو يرى بالأحرى؟ كانت الفتاة لا تزال نائمة تحت الشمس. عارية. تتدافع اشعة الشمس إلى الجسد الغض لتسبح في فضائه. تأملت الجسر. كان الجسد الرشيق ممددا على امتداده مخفيًا أثر العابرين. يضع بصمته بديلًا لخطوات عابرين.

تُرى من مرَّ على هذا الجسر قبلًا؟ كم من ألم احتمله هذا الجسر؟ ثمة آثار أقدام تراكمت فوق بعضها بعضًا. أقدام نساء بقامات ممشوقة؛ فرحات عاشقات، أو تعيسات حزينات بائسات، وأخريات مترهلات، لهن من المشاعر ما يسكن أرواحهن، وأجسادهن الربيلات تخفي في دواخلها ما تخفي، مررن حتى حافة الجسر، للقاء عشاقهن، أو ربما لتأمل غروب الشمس، أو ألق القمر. أو ليلقين بأجسادهن إلى المياه، هن وغيرهن؛ عاشقات عابرات. منتحرات يائسات، ومجانين ربما، أو مخمورات.

انتبهت إلى وقع أقدام خافتة، التفت إلى حيث يأتي الصوت فوجدتُ امرأةً عارية أخرى. جسد خمري ليّن، ممتلئ، يفضح امتلاءه بطنها المتهدل قليلًا، وخصرها المترهل. من موقعي تبينت أنها امرأة في الثلاثينيات. فخذ قوي. أرداف ثقيلة. ومشية ليست متزنة على أي نحو، تُرى من هي سكيرة الظهيرة والقيظ هذه؟ وقبل أن أنتهي من السؤال تبينت أنها ليست سكيرة كما توهمت، بل صاحبة عاهة مريرة. عمياء؟ معقول؟ اقتربت ببطء شديد حتى أتأكد.

اقتربتْ الفتاة من موقع الفتاة العارية الممددة على خشب الجسر. جلست بجوارها ثم تمددت قريبًا منها.

سأسمّي الفتاة الأولى "كيان" والثانية "سكيرة الظهيرة". حين شعرت "كيان" بوجود "سكيرة الظهيرة" بجوارها مدت يدها وربتت على فخذها. أمسكت السكيرة بكفي صديقتها بحنان أنثوي. وانتفض وعيي بشهقات حنين من نهدي كل منهما حتى بات ضجيجا روحانيًا وشبقيًا في آن معا.

شعرتُ فجأة بالإعياء. أدركت أن الشمس قد فعلت فعلتها القذرة، وأنني أصبت بدوار الشمس. خشيتُ أن أفقد وعيي، ما قد يعرضني للغرق. ولن يكون بإمكان هاتين الفتاتين الكفيفتين أن تفعلا لي شيئا.

وهكذا قررت العودة من حيث أتيت. لكن شعوري بالدوار تصاعد فجأة، مما جعلني أتوقف ولا أرى ملاذا أقرب من الجسر الخشبي. وهكذا شرعت بالتوجه صوب الجسر بسرعة، من دون مراعاة لقواعد الحذر التي كنت ألتزم بها بصرامة قبل لحظات.

كنت أقترب منهما مدفوعًا بالخوف من السقوط قبل الوصول إلى الجسر. ولمحتهما في حركتي السريعة اللاهثة، فوجدت سكيرة الظهيرة قد ألقت بنفسها في حضن كيان في مشهد حميم.

كرهت إعيائي في تلك اللحظة، لكن لم يكن أمامي مفر من الاستمرار في الحركة العنيفة التي يبدو أنها لفتت انتباههما، حيث اقتربتُ منهما

لدرجة أنني لم أكن في حاجة إلى أكثر من ضربتي ذراعين أخريين كي أتمكن من الإمساك بجسد الجسر الخشبي الذي تعلقت به متشبثًا، بينما أصابهما الارتياع وراحا يناديان بذعر:

- من هناك؟ أنت هناك! ماذا تفعل هنا؟ من أنت؟

التفتُّ لهما وأحسست أنني لا أستطيع التنفس أو الكلام، وأدركت أنهما بالفعل عمياوتان. نهضتا، وتخبطتا قليلا، لكنهما بدلا من أن يتقدما باتجاهي، استندت كل منهما على رفيقتها، وشرعتا في الهرولة المشوَّشة في اتجاه العودة. خائفتان. متعثرتان. كأنما تركت كل منهما عينيها في مكان ما، متكئات على ما تراه نهودهما، في طريقهما إلى الغامض المجهول الذي لن أعرفه أبدًا.

روزالين

"أريد فستانًا أحمر. أريده باليًا ورخيصًا. أريده ضيقًا جدًا. أود أن أرتديه حتى يمزقه أحدهم عن جسدي".

كيم أدونيزيو

باغتتني بضحكتها وهي تقول: "انظر إلى عينيك، التمعتا ببريق غريب، بمجرد أن عرضت عليك الفكرة".

ابتسمتُ مبهوتًا، وقلت لها: "الفكرة غريبة ومثيرة".

تأملتُ صديقتَها، كانت فتاة نحيفة، بشرتها قمحية، ترتدي فستانًا أسود قصيرًا، عاري الأكتاف، ومفتوح الصدر كاشفًا عن كل المساحة من أعلى الرقبة حتى منتصف بطنها، إضافة إلى جزءٍ من نهديها الصغيرين.

كانت تمسك بكأس تحتوي مشروب الـ "جين" بيدها، وتستمع ضاحكة لأمريكي أشقر خمسيني نحيل، وعندما تسمع أغنية مما تحب من تلك التي تغنيها الفرقة التي تعلو المنصة القريبة من مدخل الملهى، سرعان ما تترك رفيقها وتقترب منا لترقص بحيوية ويعلو صوتها: Yea Yeaaaaa baby yeaaaa.

عندما انتهت الأغنية اقتربت صديقتها تلك مني ومالت لتقول لي، وهي توجه رأسها باتجاه الأمريكي الأشقر: "هذا الرجل يلاحقني منذ ثلاثة شهور".

سألتها مندهشا: ثلاثة شهور؟ ولماذا تتمنعين عنه؟

قالت: ممارسة الحب تقتضي حدًا أدنى من القبول. لا أستطيع أن أنام، إلا مع رجل يعجبني. تعرف النقود ليست كل شيء.

أمّنتُ على كلماتها ضاحكًا، فقالت: أخبرني أنه لن يفرض نفسه عليَّ أكثر من ذلك، وأنه سيغادر البار. لكني أعرف أنه سيأتي بعد دقائق مرة أخرى.

ضحكنا ثلاثتنا بينما وقفت بجوارنا تتمايل في هدوء مع الموسيقى، ثم دعت صديقتي لكي ترقص معها.

تذوقتُ طعمه؛ مزيج من مذاق حمضي مشوب بالمرارة، وتنشّقت رائحة عضوها العاري إلا من ذؤابة من شعر خفيف ناعم كانت تتركها

أعلاه. تقريبا لم تكن له رائحة إلا عبق باهت يشبه نسمة من رائحة إبط، وبين آن وآخر كنت أقبل رُفْغها؛ ملتقى فخذها بالعانة، مستطيبًا نعومته ورائحته المحايدة. وسرعان ما كنت أعود للعق مهبلها الذي بدا ضيقًا، يكاد لا يتسع حتى للساني. وكنت أبحث بلساني عن "لسان النار". توقفتُ عندما اقتربت شهوتها. أبعدتْ رأسي برقة، فتابعت الصعود بلساني مبتعدا عن عانتها، متابعا تذوق سوّتها الصغيرة الناعمة المسطحة، سُرّتها، ثم بطنها اللدن الهضيم، وصولًا إلى منتصف المسافة بين نهديها. كنت أشعر بشهوتي تكاد تكون ميتة. ولم أعرف لذلك سببًا، لكني لم أشعر بأي توتر. لم أشعر أنني أحتاج لأبرر لنفسي، أو لها، شيئًا. كان لجسمها عبق جميل خفيف من رائحة عطر فاكهي دبق. لم تتحمل مص حلمتيها طويلًا. فسرعان ما وضعت يدها على صدرها الأيمن، فيما كان جسدها يضج بالشبق.

صديقتي استجابت لها فورًا، ووقفتا بجوار الطاولة التي كنا نجلس إليها، وسرعان ما اندمجتا في الرقص. كانت صديقتي في أثناء الرقص تقترب مني بدلال ثم تبتعد، وأحيانا تقف خلف رفيقتها وكأنها رجل يمسك بامرأته ويضاجعها من الخلف ثم تنظران إليّ مبتسمتين، بينما تفتعل صديقتي تعبيرات مضحكة بوجهها وتنفجر في الضحك دون أن تتوقف عن الرقص.

تجرعتُ من كأس البيرة، جرعة، ثم وجدت صديقتي تميل عليها

وتهمس لها بشيء، فانفجرتْ ضاحكة، ثم كمن باغتتها نشوتها، راحت تعلي من صوتها مرة أخرى: Yea Baby yeaaaaaaa، وبعدها اقتربت مني وهي تهُزّ أردافها برشاقة دون أن تفقد إيقاع الرقص.

ثم شرعت ترقص وهي تحرك يديها بطريقة مضحكة؛ كأنها تمسك بعضو ذكري ضخم وتلاعبه بحركة رتيبة، وهي تثبّت عينيها في عيني دون أن تفقد ابتسامتها، وهو ما أثار ضحكي وضحك صديقتي، وأغلب الجالسين على الموائد المجاورة. كان مصدر الضحك ليس ما تفعله بقدر ما إنه يصدر عنها هي تحديدا، فهي صاحبة وجه تمتزج فيه براءة طفولية تؤكدها الملامح المنمقة الصغيرة، مع نضج أنثوي تكشفه الطريقة التي تتحدث بها، والطريقة التي ترقص بها. كانت تؤدي دورًا على مسرح صغير من مسارح الحياة؛ أميرة نفسها. امرأة حرة، تملك جسدها وتجعل من الدعارة أداة لحب الحياة.

عندما انتهت الأغنية قالت إنها ستذهب لتحضر لنفسها مشروبًا، واتجهت إلى البار القريب إلى حيث كنا نجلس، بينما جاءت صديقتي وجلست بجواري.

قالت: مجنونة.

قلت: جدًا.

قالت: أخبرتها قبل قليل عن الموضوع.

قلت: أي موضوع؟

قالت: الحفلة.

قلت: أي حفلة؟

قالت: نحن الثلاثة معا.

قلت: لا؟ لا تقولي.

قالت ضاحكة: لماذا؟ أنت تريد ذلك. رأيت ذلك في نظرة عينيك.

قلت مبتسمًا: لا أعرف. أنتِ تلاعبيني نفسيًا. لا أحب هذه الألعاب خصوصًا وأنا تقريبا سكران.

قالت: لا يا حبيبي أنا لا ألاعبك نفسيًا. اعترف أنت أن الفكرة أعجبتك.

قلت: هل تعجبك أنتِ؟

قالت: بالنسبة لي أظنها كذلك. امرأتان ورجل. تقدمان لك أولا مشهدًا جنسيًا بينهما لكي يستثار خيالك. تعبث إحداهما فيك بينما الأخرى تنتظر أن تداعبها أنت.

وأشارت باتجاه الفتاة، وأردفت بابتسامة خبيثة:

– ثم يبدو أن الفكرة أعجبتها هي أيضًا.

قلت: صحيح، ولكن أنا أريد أن أنام معك. أنت وأنا وحدنا فقط.

قالت ضاحكة: أوكي يا حبيبي كما تريد، هي ستجد صديقًا لها في أي لحظة.

تلفّت حولي بحثًا عن صديقتها، فلم أجد لها أثرا.

أعجبتني الفكرة، لكني لم أكن مستعدًا لها. كنت مشغولًا بهذه الفتاة: روزالين، فعلى مدى الشهور الثلاثة التي تعرفت إليها خلالها، كانت تتوغل في روحي ببساطتها. منذ تعرفت إليها في هذا المرقص وقد بدا كأن روحي تعرف روحها قبل زمن. قالت لي الشيء نفسه.

جاءت شهوتها سريعًا، بينما كانت تلف ساقيها حول خصري، ثم إنها رفعت ساقها اليمنى عن ظهري وبدأت تصرخ بنعومة بصوتها المبحوح، وهي تقول: *I'm Cumming Baby. is that ok with you?*، فأسرعت من حركتي رغم أنني كنت بعيدًا تمامًا عن الوصول للذروة. وبمجرد إحساسي بأنها أفرغت شهوتها، وتوقفت تقلصات مهبلها، توقفت شهوتي وبدأت أشعر بعضوي وهو يذوي. أخرجته منها وقلت لها إنني لن أستطيع أن أكمل. "لماذا؟" قلت لها: "لا أعرف لست في حال جيدة، لكني سعيد لأنك التذذت". ابتسمت وقالت: "نعم كان ذلك جميلًا، يبدو أنني استثرت لأنني لم أمارس الجنس منذ زمن". دست نفسها في صدري ثم قالت: "لكنك لا تبدو لي متعبًا إلى هذا الحد يا حبيبي"، فقلت لها: "لا أعرف، ربما قلبي يتعبني". انتبهت وبدا عليها قلق لحظي، ثم داعبت بطني قائلة: "لا أنت بحال جيدة يا حبيبي، فلماذا يتعبك قلبك؟". ابتسمتُ لها. فاقتربت من صدري ثم وضعتْ حلمة صدري اليسرى في فمها، فشعرت

بلون من الأمان، أكثر من كوني ملتذًا أو مستثارًا. عادة حين تداعب امرأة حلمتيّ لا أشعر بالاستثارة، لكن يبدو أن الحلمة وجدت مكمنًا لها في هذه المرة. قلت لها ألا تهتم بإثارتي: "في الصباح أو غدًا، لست متعجلًا". ثم داعبتُ ظهرها وشعرها الأسود كستائر مخملية. وضعت يدي على ردفها فقالت: "أردافي كبيرة.. أعرف ذلك"، فضحكت وقلت لها إن مثل هذه الأرداف في بلاد أخرى، خصوصًا في بلادنا ليست سوى لعبة صغيرة. قالت: "معقولة؟". فأمنت لها ضاحكًا. ابتسمت وقالت كمن تذكر شيئًا: "قلت لي إنك لست من أستراليا في الأساس؟ أنت عربي؟ صح؟". ابتسمت لها وأنا أهز رأسي مؤكدًا وقائلًا: "عربي إفريقي". قالت: "لا يزال أمامي خمسة كيلو جرامات أحتاج لإنقاصها ليصل وزني إلى خمسين كيلو جرامًا حتى أستطيع الاشتراك في التمثيل في الدراما".

رحنا نتأمل الفريق الموسيقي المكون من مجموعة من العازفين ومغن يتوسط فتاتين تشاركانه الغناء أيضًا. إحداهما طويلة فارعة شقراء ترتدي "بنطلونًا" جينزًا أبيض، و"بودي" أبيض يكشف ذراعيها ونحرها ويبرز جزءًا من نهديها، أما الثانية فهي قمحية ربيلة الجسد وقصيرة نسبيًا، رشيقة وشعرها الأسود الناعم ينسدل حول وجهها.

قالت : هل تعرف؟

– ماذا؟

– هذا المكان يذكرني بأشياء، قد لا ترغب في الاستماع إليها.

– طالما أنها طافت برأسك فلا بأس أن أستمع إليها.

– هذا المكان يذكرني بشخص ما.

– صديق سابق؟ أو حبيب بالأحرى؟

– صحيح. لكن المكان لا يستدعي سوى ذكريات سيئة.

– هذه الموسيقى وهذا المرح يستدعيان ذكريات سيئة؟

– قلت لك من قبل إن رأسي يعمل كثيرًا، أنا لا أستطيع التوقف عن التفكير في الآخرين. جزء من متعتي بالحضور إلى هذا الملهى هو مراقبة البشر ومحاولة تخيل حياتهم الحقيقية. ما وراء الوجوه المبتسمة والضاحكة. ما تخفيه الراقصات خلف ضحكاتهن، وما يخفيه الرجال خلف وجوههن.

قاطعتها قائلا: آسف ولكنني نسيت اسم صديقتك. ما اسمها؟

ابتسمت ابتسامة من أدرك صحة يقينه في فكرة قديمة ثم قالت:

– أرأيت؟

– ماذا؟

– أنت مشغول بها وبالفكرة.

– لا لست مشغولًا بها، أنا فقط أسألك عن اسمها.

– نووغا.

ضحككتُ بقوة وأنا أقول لها: هذا أفضل من اسم صديقتك الأخرى.

ضحككتْ هي أيضا وقالت: تقصد غاغا؟

كنت أتجرع جرعة من البيرة، لكني أسقطت الكأس من على شفتي، وأنا أكاد أبصق ما في فمي، من فرط كوميدية الطريقة التي نطقت بها الاسم.

قلت: لم أسمع مثله هذه اللثغة الأرستقراطية لحرف الراء كما ينطقها الفرنسيون إلا لديك. أظنك الآسيوية الوحيدة التي تنطق الراء هكذا.

ابتسمت ثم قلّدتْ الطريقة التي تردد بها نورا صيحتها الشهيرة: Yeah Baby Yeah.

ضحكنا، ثم تبادلنا المشروب، تجرعتُ من كأسي جرعة، وأعطتني من كأس الـ"جين"، الذي تحبه جرعة، ثم حلّ الصمت. كنت أتأملها بينما تجيل رأسها في المكان وتراقب الحضور.

قلت: لم تكملي حديثك.

انتبهتْ وأدارت رأسها باتجاهي، إلا أن عينيها ظلّتا متعلقتين لثوان بفتاتين جالستين بجوارنا.

التفتُ إليهما وتعرفتُ إلى إحداهما. كانت تجلس إلى جواري مباشرة في الليلة التي تعرفت فيها إلى روزالين. وكنت أقارن بينهما، لكنني كنت أشعر بميْل أقوى لروزالين دفعني لأتعرف إليها.

قالت: نعم. المكان هنا كان سببًا في خسارة صديقي.

– لماذا؟

– في إحدى المرات كنت قبلت دعوة عازف الـ"درامز" للرقص معه، كان صديقي مسافرًا للندن، فهو بريطاني. لكنه عاد فجأة قبل الموعد واتصل بي، ولا أعرف لماذا كذبت عليه. قلت له إنني لن أخرج لأنني متعبة، واتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي. جئت إلى هنا، ففوجئت أنه حضر أيضًا. وشاهدني وأنا أراقص ذلك الشاب فظنني أخونه.

– لو كنت مكانه لفكرت بنفس الطريقة.

– نعم أعرف ذلك، لكن صدقني لم يكن هناك شيء بيني وبين ذلك الفتى.

– منذ متى حدث ذلك؟

– ثلاثة شهور تقريبًا.

– والآن؟

– لا شيء. قطع علاقته بي. حين أرسل له رسالة هاتفية أسأله فيها عما يفعل، يرد باقتضاب، بكلمة أو كلمتين.

– هل تحبينه؟

– أظن ذلك.

- كم استمرت علاقتكما؟
- أربع سنوات.
- آآآه..هذا وقت طويل، كيف أنهى ثقته فيكِ هكذا في لحظة؟

صمتت وهي تنظر لي نظرة مرقت بها لمحة حزن خاطفة، من دون أن تفقد ابتسامتها.

قلت لها: عمومًا هذا موضوع طويل، دعينا نناقشه عند عودتنا.

***

عادة حين أنتهي من ممارسة الجنس، وبعد فترة من الالتصاق الحنون تجيش رغبتي في الوحدة والشعور بفردية جسدي. لكني شعرت أن وجودها بجواري بهذا الشكل لا يضايقني على أي نحو. قالت إنها متعبة "بعد أن تأتي شهوتي أشعر برغبة عميقة في النوم". قبلتها ثم أدرنا ظهرنا لبعضنا بعضًا والتصقت أردافنا، فلم تنزعج أو تتحرك، بالعكس شعرت بها تقرِّب ردفها أكثر. وسرعان ما سمعت صوت تنفسها. لكنها في الصباح أخبرتني أنني تقلبت بقوة فدفعتها حتى طاحت على الأرض.

***

رفعت كأسها باتجاهي فقلت لها "اقترحي نخبا". قالت ضاحكة: "نخب نووغا"!

انخرطنا في الضحك، بينما تناهى إلى سمعنا صوت نورا يعلو على الموسيقى وهي تصرخ: Yeah Baby Yeah.

بعد لحظات وجدناها تقف بجوارنا، اقتربت مني مبتسمة ووقفت بجواري، فربتُّ على ظهرها محييا.

قالت روزالين لها: كنا للتو نرفع نخبا لك.

رفعت حاجبيها دهشة ثم اقترحت نخبًا جديدًا، فرفعنا كئوسنا معا وطرقناها ببعضها في خفة، وصرخت نورا: نخب فعل الحب! بينما وقف قريبًا منا شاب أمريكي أسمر ضخم يرقبها بابتسامة وديعة، فلوّحتْ له محيية.

وقفت بجوارنا للحظات أخرى، ثم استجابت لدعوة الشاب الأسمر للرقص. ودّعَتْها روزالين، وطلبت مني أن أحضر لها مشروبًا في أثناء ذهابها إلى الحمام.

تأملت الوجوه من حولي. كان المكان مكتظًا. كنا نعتلي منصة تضم عددًا من الموائد، تحتل الجانب الأيمن لخشبة المسرح الصغيرة التي تعتليها الفرقة الموسيقية، وأمامها البار الرئيسي الذي يأخذ شكلًا مستطيلًا يجلس حول أضلاعه الأربعة مجموعات من الفتيات والرجال: أوربيين وآسيويين، أستراليين، وسواهم. تحتل زوايا السقف العالي شاشات ضخمة

تبث أغنيات ومباريات كرة قدم، بلا صوت، بينما يعلو، في أرجاء المكان، صخب الموسيقى التي تعزفها الفرقة. أغنيات بوب أمريكية، وأحيانا "روك آند رول" تغنيها فتاة آسيوية صغيرة الجسد ذات الصوت القوي.

إلى يميني كان البار الكبير المزدحم بالبشر، وعلى يساري بار صغير توجهت إليه لطلب مشروبين لي ولروزالين. وجدت البار يعج بالبشر، لا موطئ لقدم. أخيرًا وجدت مساحة خالية بجوار فتاتين شقراوين تقفان بمفردهما فدسست نفسي بجوارهما وطلبت من البارمان كأسي جين تونيك. كانت عينا الفتاة الفارعة التي طلبت من صديقتها أن تفسح لي لا تزال مصوَّرة في ذاكرتي، فالتفت إليها مرة أخرى. عيناها رماديتان شفافتان، تبادلنا الابتسام حين التقت عيوننا، وواصلت هي حديثها مع صديقتها.

عدت بكأسي الـ"جين" إلى المائدة، ولم تكن روزالين قد عادت بعد. تذكرت أن أول مرة التقت عيناي بعينيها في أثناء خروجنا كلينا من الحمام، التقينا في الممر الواصل بين حمامي السيدات والرجال. ابتسمتُ لها فابتسمتْ، فأفسحت لها الطريق لتمر، متأملًا ثوبها الأحمر القصير الذي كشف عن ساقين جميلتين، وعن بشرة قمحية مخملية، وعن مساحة ظهرها الجميل المزيّن بشعرها الأسود الطويل الناعم المموَّج قليلًا حول كتفيها.

***

خلعتُ ثيابي قبلها، وتمددت، فمسدت ظهري بحنان، وهي تسألني كل لحظة : هل يعجبك هذا يا حبيبي؟ فكنت أهمهم لها إيجابا. وعندما خلعتُ ثيابها تأملت جسدها المتناسق. كان نهداها كبيرين نسبيا، على عكس الشائع لدى الآسيويات ذوات الأثداء الصغيرة، احتضنتها ومررت كفي على ظهرها وكفليها وأردافها، دون أن أشعر بشهوة، بل بأنني أحتضن جسدًا أليفًا.

***

نظرتُ إلى يميني فوجدت فتاتين آسيويتين تجلسان وهما تدخنان بصمت؛ إحداهما نحيفة تبدو صغيرة لا يكاد عمرها يتجاوز السابعة عشر، والأخرى فتاة قصيرة، تبدو في منتصف العشرينيات، يكشف التي شيرت الضيق الذي ترتديه عن نهدين ضخمين.

تذكرت ما قالته روزالين عن تأملها للبشر، ومحاولتها تخيل ما تخفيه الوجوه قبل ابتساماتهم. تذكرت أن الفتاة النحيفة الصغيرة في الجوار هي نفسها رارا، والتي رغم صغر عمرها تربي طفلًا صغيرًا من حمل بلا زواج، كما أخبرتني روزالين.

***

عندما التقيتها في الأسبوع اللاحق، كنا نتعامل كأننا عشيقان قديمان متناغمان. ظللنا نتحدث ونحن شبه عاريين حتى أدركنا الفجر. قالت: دعنا نرى. أنت شخص عصبي، حساس، ورغم أنك لست فضوليًا لكنك كثير الأسئلة، تحب أن تقضي أوقاتًا ممتعة، مثلك في هذا مثل غاغا، وابتسمتُ فضحكتُ ولم أعلق. صمتنا قليلًا، ولأننا فقط كنا نخشى أن ننام دون أن نمارس الحب فقد تعرّينا. مالت على ذكري وأخذت تمصه. كان لفمها أو بالأحرى لسانها ملمس مطمئن أكثر من كونه مثيرًا. كنت أعرف أنني عادة لا أستثار بالمصّ إلا قليلًا. لكنني تركتها مستطيبًا حماسها. قلت لو لم تلمس صفني بعد عشر ثوان فسأوقفها. وبالفعل، أمسكت بذراعها وجذبتها بحيث أصبحت تنام فوقي، أمسكت بردفيها بينما رحت أداعب مهبلها بذكري، مستعذبًا إحساسي بتلك الذؤابة التي تمر على عضوي كأنها وبرة قطنية تجمع إحساسًا متناقضًا بالخشونة والنعومة في آن. عندما أدركتْ تهيُّجي من هذه الحركة شرعت تحك عضوها في ذكري بحماس، وسرعان ما استعاد صلابته. رحنا نمرغ جسدينا بعضهما ببعض، بينما أقبلها في رقبتها، ونهديها. وبعد لحظات جلست وثنت ركبتيها ثم وضعت ذكري في عضوها فبدا كأنه وجد له مستقرا. ووضعتُ ذراعي الأيمن أسفل رأسي متأملًا صعودها وهبوطها والنشوة التي تحملها عيناها، وهي تستند بكفيها على صدري، ثم استجبت لها مع ارتفاع إيقاع شهوتينا. وحين انتهينا كانت تصرخ من ألم فخذيها اللذين أجهدا من قيامها وجلوسها. وهالني أنني لم أجد الواقي الذكري. وبعد لحظات وجدتها تمسك به عالقًا في مهبلها، سألتها مبتسما: ما هذا؟ فضحكت

وقالت: لا أعرف يبدو أن عضوي يحب الاحتفاظ بالذكريات.

***

اقتربت مني "رارا" مبتسمة فحييتها. سألتني أين روزالين؟ قلت لها: في الحمام كالعادة. ضحكتْ وسألتني أن أعيرها سيجارة لأن سجائرها نفدت، وقبل أن أشعلها لها انصرفت متجهة إلى منصة الرقص القريبة.

جاءت روزالين وسألتني: هل أنت بخير؟ وربتت على يدي كما تفعل عادة كلما تحدثت معي أو أرادت أن تطمئن عليّ. فربتُّ على كتفها وأعدت عليها السؤال بدوري، فقالت: "نعم أنا بخير. الحمام ممتلئ بالفتيات"، ثم ضحكت وهي تقول: "يبدو أن الفتيات شربن كثيرا الليلة".

أشرت إلى كأس الجين الخاصة بها ثم رفعت كأسي في نخبها.

ناوشتني حال من الصفاء الروحي الكامل، وتأملت المكان من حولي وأنا أشعر بأنني أحب كل الموجودين، وتأملت وجه روزالين الضاحك كالعادة، وشعرت أنني أحبها. وددت أن أقول لها ذلك. لكني وأدت الفكرة لعبثيتها. فقد كانت الأمور واضحة بيننا. شخصان اجتمعا في مكان فجمعت بينهما ألفة. لكن أيًا منهما لا يريد أكثر من الصحبة الجيدة والتفاهم. صداقة يغلفها حب قد ينتهي في أي لحظة. حب يجب أن ينتهي بلا ألم. بعد عام أو اثنين سأغادر هذه المدينة. وهي ستظل تعمل في الإعداد لبرامج التليفزيون حتى تحصل على فرصة لتصبح موديلا، وبعدها تدخل

حقل التمثيل الدرامي. وهذا هو قرارها بعد تجربتها الفاشلة مع صديقها البريطاني.

- لن أكون المُحبّة التي تقع في الحب بسهولة ثم تُترك لاحقًا مع آلامها. لا، أنا أيضا لن أهتم سوى بنفسي. سأقضي أوقاتا ممتعة مع من يعجبني، وأفعل ما يحلو لي بلا لوم من أحد.

هكذا أوضحت لي سبب ارتيادها الملهى الليلي حين التقيتها لأول مرة، ومع ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من القول:

"لو قُدِّر لي أن أعيش في هذا البلد لسنوات طويلة فلا شك أنني كنت سأقع في غرامك من أول لحظة".

ابتسمتْ ثم قالت وهي تضع يدها على فخذي وتربت عليها بحركة سريعة: "راقب كلماتك. ما تقوله خطير. انتبه. مَن هنا الذي يتحدث عن الحب؟".

في تلك الليلة، بعد عودتنا إلى شقتي، قالت بصوتها المبحوح الجميل: أستطيع أن أؤدي أي دور حتى دور رجل. بدأتْ في تقليد الطريقة التي يتحدث بها صديقها الإنجليزي. ثم نظرت ضاحكة. "أنا أيضا بريطانية أَنظر إلى الناس من أعلى أنفي"، ومدت رقبتها إلى مداها رافعة رأسها تقلد امرأة مغرورة. ثم تصنّعت أنها تمسك فنجانا في إحدى يديها وفي الأخرى طبق صغير.

"انظر: أنا الآن أشرب شاي الساعة الخامسة. انظر. أنا بريطانية مغرورة

لا أتناول الطعام في مطاعم بلادكم الفقيرة"، ثم قرقرت ضاحكة. مع ذلك، لاحظتُ ظلالاً خافتة من الحسرة تختبئ خلف ضحكتها.

اقتربتْ من الفراش وجلست بجواري، نزعتْ الرموش الصناعية عن رمشيها، فاتخذت عيناها ملمحا أكثر براءة، لكنها فقدت شيئًا من جمالها في الوقت نفسه، وفقدت عيناها جاذبيتها. ثم بدأت في لصق الرمشين الاصطناعيين تحت أنفها فكوَّنت شاربًا، وبدأت تتطلع إليَّ وهي تحمل ملامح محايدة تمامًا فانفجرتُ ضاحكًا، لكني صرخت قائلًا لها إن عليها أن تزيله فورًا لأنه يعطيها مظهرًا رجوليًا تمامًا. قالت لي: "أرأيت؟ هذا ما أود أن أسمعه. بإمكاني أن أؤدي أي دور. سوف أكون ممثلة مشهورة". ثم استعادت ملامح وجهها التي تكشف عن طيبة وبراءة فطريتين، ثم ربتت على يديّ كعادتها وهي تقول : "صلِّ من أجلي يا حبيبي أن أوقِّع عقد الموديل مع شركة الإنتاج في أسرع وقت".

احتضنتها وربتُّ على كتفها. شعرت بعاطفة قوية، وغامضة، لكني لم أقل شيئًا. نظرت إليَّ فقلت لها: "لن أنطق بحرف قبل أن تنزعي هذا الشارب البشع"، فانفجرتْ ضاحكة، ونهضت من جواري حيث موضع المرآة الملصقة بباب الدولاب وأخذت تتأمل نفسها مبتسمة، ثم شرعتْ تغير ملامح وجهها في تعبيرات مختلفة. ناديت عليها مؤنبًا، فانتفضت وقالت: "أوكي أوكي. سأنزعه الآن".

لا أعرف كيف استطعت أن أتذكر كل هذه الأحداث التي مضى عليها اليوم نحو خمس سنوات، كما مر على رؤيتي لروزالين لآخر مرة

ما يقرب من ثلاث سنوات. وانقطعت أخبارها فجأة، بعد انتقالي للعمل في سيدني.

لكن، بمجرد دخولي هذا الملهى داهمتني الذاكرة بكل تلك التفاصيل. تأملت الوجوه من حولي، فلم أعرف من بينها أحدًا. نفس المكان كما هو، الديكور، وأغلب وجوه العاملين فيه، لكن النزلاء في أغلبيتهم لم يكونوا مألوفين. لم أجد أي فتاة ممن اعتدت رؤيتهن هنا قبل سنوات، أو حتى من الأصدقاء الرجال الذين كنت تعرفت إليهم هنا. وهذا بدهي، فلا يوجد من يستمر في العمل هنا في جاكارتا أكثر من خمس سنوات. ربما باستثناء الأستراليين الذين تمثل لهم المدينة نزهة صغيرة من بلادهم.

توجهت إلى البار الرئيسي الذي يتخذ شكلًا مستطيلًا تدور المقاعد حوله، ويتوسطه عدد من "البار مانز"، طلبت بيرة، من الشاب الإندونيسي الوسيم الذي يعمل بار مان حيث جلست، وسرعان ما عاد لي بكأس طويلة ممتلئة.

– آهي "بنتاجن" Bentagen؟

– بالتأكيد. إذا لم تحدد شيئا فهذا يعني أنها بنتاجن.

ابتسمتُ له رافعًا صوتي بشكره لأتغلب على صوت الموسيقى الصاخب الذي يضج في أرجاء الملهى. فيما أتمتم بلا توقف: بنتاجن، بنتاجن.

تأملت مدخل الملهى الحجري الذي يبدو مثل مدخل كهف عتيق لا

يؤوي سوى الخفافيش، كانت الفتيات يتوافدن، فرادى أو في ثنائيات، يبحثن بأعينهن عن رفقة لهن ممن قد يعرفن، والبعض منهن يبحثن عن صيد جديد.

حول البار تحلق عدد كبير من الخفافيش، أغلب الرجال من جنسيات مختلفة، أجنبية، وآسيوية، والفتيات أغلبهن من أهل البلاد باستثناء بعض الشقراوات اللاتي جئن يبحثن عن رفاق لهن، إذ يتطلعن حولهن في فضول. أشعلت سيجارة وتجرعت من البيرة جرعات متوالية على أمل الانتشاء والدخول في جو المكان بعيدا عن الذكريات.

وجدت فتاة تحدِّق باتجاهي، تقف على الجانب المقابل من البار. تأملتها، فبدت نحيفة وصغيرة في السن بشكل واضح، لم تكن جميلة أو تتمتع بأي جاذبية. نحّيت نظري بعيدا عنها. لكن نظرات عينينا التقت لاحقا أكثر من مرة. أحسست أنني أرغب في رؤية أي فتاة أخرى تشغلني عن هذه الفتاة.

إلى يساري كانت تجلس سيدة شقراء لها لكنة أمريكية، ذكرتني بـ"كاتيا" التي تشاركني مكتبي في سيدني. غير أن السيدة بجواري بدت أكثر حرارة وحسية، تجلس مع رجل أنيق يبدو في منتصف الخمسينيات، بينما كان المقعد إلى يميني خاليا. شاهدت الفتاة في الجهة المقابلة تحدق باتجاهي وهي تتحرك كأنها قررت أن تأتي إلى جواري.

أحسست بحركة مداهمة بجواري فانتفضتُ، نظرت إلى يميني فوجدت فتاة جميلة، تحييني، فحييتها، فوجدتها تقرب وجنتها مني

لتقبلني، قبلتها وأنا أدرك أنها نورا. شعرت بفرح مداهم، وعانقتها وأنا أربت على ظهرها العاري.

- ما هذه المفاجأة؟
- قل لي أنت ما هذه المفاجأة. جئت تبحث عن روزالين؟
- أين هي؟
- هل تعرف أنني لم أرها من فترة طويلة. صديقات كثيرات لم يعدن يترددن على المكان.
- وأنت؟
- ههههه، لا أنا مختلفة.
- تبدين أكثر امتلاء.
- هل ما زلت تحب الممتلئات؟
- أنا؟
- طبعا روزالين كانت ممتلئة.
- ~~هههههههههههه~~
- لماذا تضحك؟
- لا لم تكن ممتلئة.
- أردافها كبيرة.

- هههههه هذا شأن آخر.
- أصبحت أردافي كبيرة أنا أيضا.

التفت أسفل خاصرتها.. وانحنيت لأتأمل أردافها، لكنها باغتتني واقتربت مني ثم جلستْ على فخذي وقالت ضاحكة:

- إلام تنظر؟ هكذا يمكنك أن تحس بها. أليست كبيرة؟

ضحكت وقلت لها:

- الآن أدرك أنني أفتقدك.

ابتسمت وهي تقول:

- ليس أجمل من أن يلتقي رجل بامرأة تمنى أن ينام معها و لم يفعل.

لم أعقِّب فنهضت وجلست على الكرسي المجاور لي ثم قالت:

- قل شيئا.
- لا أعرف. هذا إحساس مرير. أن يظل شخص متعلقا بامرأة كانت لديه الفرصة لأن يضاجعها ولا يفعل. وحين يلتقيها يكون قد فقد وهج الخبرة الأولى.
- هذا لا ينطبق عليَّ.
- هههههه، بالتأكيد. أنت مختلفة.
- دعنا نشرب نخب عودتك. سأطلب ويسكي كولا.

- سأذهب إلى البار.

- لا. سأتولى الأمر. المكان يفقد زبائنه لكن لا يفقد العاملين به. وهم أصدقائي. سأحصل على كأسين دوبل بسعر واحد.

- أنت رائعة دائما.

ضحكت ثم هزت أردافها وهي تتحرك باتجاه البار قائلة:

- نخب الأرداف الكبيرة.

***

استيقظت صباحا على ملمس أردافنا التي يبدو أنها ظلت ملتصقة طول الليل. لم أعد أذكر كثيرا من ليلة أمس التي أسرفنا فيها الشراب. لكن إحساسي في هذه اللحظة بهذه الأنثى شعور ملتبس كأننا صديقان قديمان، أو عشيقان، لكن شيئا ما انكسر بينهما و لم يعد ممكنا إصلاحه. كان ذلك الشيء المكسور هو غياب روزالين.

وقبل أن أتحرك أشعر بمطرقة ثقيلة تطرق رأسي، صحيح أنها لا تفجر جمجمتي، لكنها تفجر روحي وتنثر أشلاءها. فهذه هي مطرقة الزمن. نعم. الزمن سيظل يلاحقنا بينما هو يدفعنا إلى الأمام، فيما يعلم أن اللحظات الجميلة والحقيقية هي تلك التي مرت، لكنه لا يفصح عن سره هذا. تماما مثل نورا، التي رغم مرور خمس سنوات وليلة طويلة لم

تفصح عن سرها شيئا، الحقيقة الوحيدة التي أجلتها أن روزالين اختفت، ولا يعرف أحد أين ذهبت.

بالتأكيد لم تعمل في التمثيل. قالت نورا ضاحكة. هل عادت إلى جزيرتها وقررت أن تحيا حياة بدائية تجد لنفسها فيها معنى بدلا من هذه المدينة التي مسخت كل شيء باسم النقود؟ هل قررت أن تتفادى مصير نورا التي أصبحت جسدا يرتبط بالكهف وسهر الليالي؟ كل يوم مع رجل بلا هدف ولا أمل سوى ما تقنع نفسها به عن المتعة. لا أعرف. فلم تظهر روزالين حتى رحيلي. أما نورا فاكتفت بالبكاء بغتة، ثم تركتني وانصرفت مضيفة إلى ذاكرتي جزءا جديدا من زمن، لا يصبح له ثقل ولا معنى إلا بما يستقر منه في الذاكرة. ربما أرادت فقط ان تفسح لنفسها حيزًا صغيرًا بجوار روزالين في ذاكرتي، حيث تصبح حياة كل منهما ربما أجمل كثيرا من واقعهما الذي لا أعرف عنه شيئا، وربما لا أريد.

فقط نظرت إليَّ وقالت: تعرف، كنت أظن أن النوم عارية بجوار رجل لا يرغب في الجنس بل ليسمع حكايات عن امرأة أخرى ليس مثيرا بالمرة، لكني أعتبره تجربتي الاستثنائية التي خبرتها معك لأول مرة!

ساحر الموسيقى

"صامتةً أحوّم فوق الهاوية
الصقيع الثقيل الذي حمّل به البحر جسدي
وحوشٌ أسطورية لها ثغور آلة البيانو
تتكئ على المهاوي مرتاحة في الظل
عاريةً أنام!"

جويس منصور

أشعلتُ سيجارة، وأنا أتأمله بشفقة: مهمومًا، مقطِّبًا جبينه، متغضن الجبهة، لكن عينيه الحزينتين احتفظتا بنظرتهما النبيلة. أمامنا على المنضدة النحاسية الدائرية الصغيرة المتهالكة كوبا قهوة زجاجيان صغيران فارغان إلا من الثمالة الثخينة.

كان يضع مبسم الشيشة في فمه، بينما أُشعل أنا سيجارة من الأخرى،

منذ وصلنا إلى هذا المقهى، الذي تتراص كراسيه المتهالكة ومناضده البائسة أسفل تكعيبة عنب وهمية، بلا عنب، وأعلى رصيف ضيق يقابل المحل الصغير الذي تعد فيه المشروبات.

مر عام تقريبًا منذ رأيته آخر مرة. لم أعد أذكر لماذا انقطعت علاقتنا. كان صديقًا مقربًا، وعلى مدى ثلاثة أعوام تقريبًا كنا نلتقي يومًا بعد آخر. نتردد على قاعات الفن أحيانًا، ونثرثر في المقاهي كثيرًا، وبين آن وآخر نحضر حفلات موسيقى، شارك هو في بعضها بالعزف على الجيتار، لكنه كان يختفي لأيام وأحيانا لأسابيع ثم يظهر. لا يتحدث أبدًا عن أسباب اختفائه.

كنت أحدّق فيه ولا أصدق كيف أصبح يبدو هكذا، وكأن عمره قد زاد عشر سنوات في عام واحد. شعر رأسه المشعث حول رأسه طقطق بغزو الشعيرات البيضاء، وأطلق لحية خفيفة مشذّبة اندست في كوفية صوفية كُحْلية تلفّع بها. لاحظت أن عينيه محاطتان بهالتين داكنتين، وجيبي جفنيه السفليين انتفخا تعبيرًا عن إجهاد مزمن. لكن عينيه احتفظتا بالتماعتهما المميزة.

أخبرني أنه قادم من المستشفى، وأن أباه بين الحياة والموت. حكى بصوت ضعيف ونبرة محايدة لكنها مغموسة في مرارة. وأضاف أنه لا يملك شيئا يفعله من أجله لكي ينقذه، وأن هذا الإحساس بالعجز هو الذي يجعله يشعر بالتعاسة، ربما أكثر من فكرة احتمال وفاة الأب في أية لحظة.

أحسست أنني أرغب في ضمه إلى صدري. اقتربت منه وضممته.

نظر الجالسون على المنضدة المجاورة إلينا بفضول اكتسى بمسحة من عدم الاكتراث. ثم جلست بجواره. حكى لي التفاصيل بنفس النبرة المحايدة. عام من التردد على المستشفيات، ولأنه الابن الوحيد لأبيه كان عليه أن يلازمه من عيادة خاصة إلى مستشفى، ومن معمل تحاليل إلى مستشفى آخر، ومنها إلى مركز علاج السرطان، إلى وحدة العلاج الكيماوي، وأن يرقب تفاصيل انهيار الأب أمامه يوما بعد آخر.

كنت أتابع شفتيه بشغف، الشفة العليا البارزة قليلا تنسدل عليها شعيرات شاربه تجعلني راغبة في تقبيله. لكنه كبح رغبتي في تأمل شفتيه بصمته، فاضطرني إلى أن أتحدث كثيرا.

حاولتُ مواساته أولًا، ثم استدعيت كل قصص الأصدقاء والأقارب ممن عانوا من أمراض السرطان وتغلبوا عليه. كان ينظر إليَّ شاردًا واجمًا، يهز رأسه بين آن وآخر حتى شككت أنه ينصت لي. قلت إنه ربما لا يرغب أصلًا في الحديث عن الموضوع، بل يبدو أن التفكير المستمر في الموضوع قد أعياه.

شعرت بغبائي، فحدثته عن أمي التي أعاندها يوميًا بلا سبب، وأحيانا أخرى لأي سبب، وعن شقيقتي التي قررت أن تتزوج من ألماني لكي تهاجر من مصر، وتشعر بأنها إنسانة تستطيع أن تسير في الطريق بلا خوف من انتهاك جسدها يوميًا. حدثته عن فيلم "Pulp Fiction" وعن فلسفة الواقعية القذرة كما أحسست بها عند تارنتينو، وثرثرت عن سفاسف أخرى كثيرة. وطلبت قهوة أخرى، وشايا وينسونًا.

حاولت أن أتحدث عن الموسيقى لمعرفتي بشغفه بها، ولكونها همّنا المشترك، ولاشتراكنا في الاستماع إلى الكثير من الموسيقى معا. لكنه بدا لا مباليا.

مد يده ليمسك بفنجان القهوة ولاحظت يده، كانت لا تزال تحتفظ بتكوينها الذي تذكرت الآن فقط كم كنت أحبه. يده رشيقة لا هي نحيفة ولا غليظة، أناملها طويلة، ولكن الأظافر المعتنى بها عريضة نسبيا. كنت أقول له إنها يد طبيب، من فرط نظافتها ونعومتها. وكان يبتسم ويقول: "يا بنتي الدكتور والعازف بيعملوا حاجة واحدة". ابتسمت لهذه الخاطرة.

تمنيت مفاجأته بتعلمي لعزف العود. في تلك الأيام كان الموضوع مجرد خاطرة، لكنني اليوم عازفة عود جيدة. لكن فتوره المستمر حسم امتناعي عن إخباره بالأمر.

ارتشف القهوة وأعاد الفنجان إلى موضعه، وتأملت الخاتم الفضي الجميل في خنصره، والدبلة الفضية المطفية في بنصره. وعاودني شعور كنت قد نسيته.

في الحفلات التي كان يعزف فيها العود، كان هناك شيء خفي يدعوني لتأمل أنامل يديه وهي تعزف. كنت أشعر بالإعجاب بمرونة وسرعة حركتهما، لكن مراقبتي المستمرة لأنامله وهو يعزف كان لها دافع آخر. كنت أشعر بشيء يثيرني في حركة يديه على أوتار الجيتار. في مرات أخرى كانت متابعتي لأصابع يده وهي تعزف لا تثيرني فقط، بل تستثير العديد من الصور الجنسية في خيالي. أحيانا كنت أهتف لنفسي "على فكرة الواد

بيستخدم صوابعه كويس" وأبتسم للإيحاء الجنسي. كنت أراقب عزفه وأتخيل أصابعه وهي تمر على جسدي، لم أخبره بذلك، ربما خوفا من أن يستخدم هذا الأمر ضدي. لا أذكر جيدا المرة التي نمت فيها معه، كان قد عزف فيها الجيتار أم لا.

قلت له "الطبيب والعازف يفعلان نفس الشيء"، وأكملت الجملة في نفسي : "العازف يداوي الروح".

نظر لي مبتسمًا، لكنها ابتسامة يائسة، كأنه لم يفهم ما أعني أو كأنه يقول لي إن روحه المدمرة لا تمكنه من العزف أصلًا.

قلت له "على فكرة أنا مش هاقدر أسيبك وأنت في الحالة دي". كان ساهمًا مطرقًا للأرض. يمد ساقيه أمامه. نظر لي من دون أن يرفع رأسه ثم قال: "لا أنا كويس. اطمّني. أنا بس محتاج أنام كويس علشان أقدر أواجه اليوم بكره". لم أصدقه. كنت أعرف أنه يشعر بالإرهاق وبالتوتر. لم يتوقف عن التفكير طوال الوقت. وأظن أن نصف كلامي أو أكثر كان مجرد وشيش يستأنس به، لكنه لم يكن ينصت لي. أعرف ذلك من عينيه الزائغتين.

أضاف"وبعدين أنا هاروّح على طول دلوقت.أنا حاسس إني تعبان". قلت له: "مش مشكلة. هاروّح معاك". كنت أعرف أنه يعيش في شقة قديمة لأهله بمفرده. صمت قليلا و لم يعقب بشيء. قلت: "صدقني مش هاضايقك. بالعكس، أنا بس عايزه أطمن إنك كويس".

في السيارة الصغيرة كنت أدخن. جلس إلى جواري شاردًا. رفعت صوت الموسيقى في محاولة لأن أجعله يتوقف عن التفكير. أعرف أنه مشغول في التفكير في الطريقة التي يتدبر بها نفقات والده. كنت أدخر مبلغًا منحني إياه أبي في محاولة من محاولات علاج إحساسه بالذنب تجاهي وتجاه شقيقتي. لكني كنت مترددة ولا أجد وسيلة لأعرض عليه المبلغ. كنت أعرف أنه حساس جدًا في هذه المسائل. وربما يباغتني بحركة من حركاته المجنونة ويلقي بنفسه من السيارة.

انداح صوت الساكس المشاغب المتوتر لـ"مايلز دافيز"، وانتظرت للحظات حتى أعرف إذا ما كانت الموسيقى تستهويه أم لا. لكنه لم ينطق. سألته: "بتحب مايلز ديفيز؟". هز رأسه نافيًا ثم قال بنبرة محايدة "أول مرة أسمع عنه.عمري ما سمعته". شعرت أنه يسخر مني. ابتسمت وقلت له: "طيب دي فرصتك التاريخية تعرفه". لم يقل شيئًا. فقط طلب مني التوقف أمام أحد أكشاك السجائر ليشتري علبة سجائر.

توقفنا وترجّل من السيارة. أحسست في تلك اللحظة إحساسا غامضا، كأنه رقصة الروح العابرة التي تبدو شغفا بالحياة أو قفزة مباغتة لطاقة حب طائشة، أو ترقبًا للحظة حلوة تستبق الروح التنبؤ بها.

***

بعد دقائق قليلة من دخولنا إلى شقته قال لي: "خدي راحتك، أكيد مش محتاجة أقول لك إن البيت بيتك. أنا لازم أنام فعلا.. أنا تعبان فشخ".

ابتسمت له وقلت: "ولا يهمك.. أنا جاية أحرسك النهارده". ابتسم لي ثم أشار إلى الثلاجة قريبا من باب المطبخ وإلى التليفزيون إشارتين متعاقبتين و لم يقل شيئا فهززت له رأسي.

***

خلعت حذائي الرياضي، وجلست مسترخية أمام التليفزيون أشاهد فيلمًا أمريكيًا قديمًا من بطولة ميريل ستريب. وأتجرع من زجاجة بيرة وجدتها في الثلاجة، وأدخن. لم أركز في الفيلم، أو ربما كانت بعض المشاهد تحلق بذاكرتي إلى مشاهد تخصني في حياتي. تذكرت ليلتنا الحميمة الوحيدة وابتسمت. كانت ليلة مدهشة. سهرنا في شقة صديق مشترك لنا من الإسكندرية. كنا شبابًا كُثرًا. شربنا بجنون ودخنا حتى عبئت الشقة بكل ألوان الدخان، وضحكنا بلا توقف.

لم أسكر كما سكرت في تلك الليلة، التي أحلف بأنني سكرت فيها حتى فقدت الوعي. في الصباح وجدت نفسي نائمة في حضنه عارية تماما. لكنني حتى اليوم لا أذكر شيئا عما حدث. هناك فقط هلاوس بصرية لا تزال تناوش مخيلتي. ضحك هيستيري، رقص شرقي وغربي، تحرشات مصنوعة كدعابة من أصدقاء، وتحرشات مقصودة وجنسية ومباغتة من آخرين. أكوام بشرية هنا وهناك، وهروب جماعي لغرف النوم لمن اشتعلت شهوتهم. أصوات غناء، والبعض وقعوا نائمين أو شاردين بفعل الكحول والمخدرات والتشوش.

تابعت الفيلم بنصف وعي، لكن صورة يده وهو يعزف الجيتار احتلت خيالي فجأة، كأن خيالي لم يعد قادرا على أن يفكر في شيء آخر. انتبهت الآن فقط أنني نسيت العود في السيارة، فارتديت حذائي وركضت خارج الشقة.

***

أخرجت العود من حقيبته وتأملته بشغف. تحسست أوتاره بأصابع يدي وشعرت باستثارة. اندهشت من هذا الإحساس. كنت مقيدة بنومه، بأنني يجب ألا أصدر صوتا، ومقيدة بشفقتي عليه، ورعايتي التي قررت أن أوليه إياها في هذه الليلة، وفي نفس الوقت أشعر أن رغبتي في العزف قد بلغت حدا لا يمكنني معه كبحها حتى لو أدى الأمر لأن يستيقظ من نومه العميق.

بدأت بالفعل أعزف بصوت خافت لحنا أحبه، وكنت تدربت عليه طويلا. مقطوعة سمعتها من عزف فريد الأطرش، وأعدت الاستماع إليها وتعلمتها. انتشيت من العزف، لكني بعد لحظات توقفت. سمعت صوته يناديني من الغرفة. وضعت العود، واتجهت للغرفة بسرعة. وجدته نائما يغط في النوم، ويشخّر. فأغلقت باب الغرفة وعدت للصالة. خلعت القميص والبنطلون وبقيت بالسوتيان و"الكيلوت". وتجرعت البيرة. ثم مشيت على أطراف أصابع قدمي المندسة في جوربي الأبيض، باتجاه الثلاجة. وجدت طبقا به بضع حبات من الزيتون، وآخر به قطع جبنة

رومي عتيقة، وفي رف سفلي وجدت أربع خيارات، انتقيت أكبرها، ووضعت كل هذا على طاولة المائدة العتيقة التي تتوسط الصالة ثم عدت للثلاجة وسحبت زجاجة بيرة أخرى واتجهت للمطبخ لأفتحها.

أكلت قليلا، ثم عدت بزجاجة البيرة إلى الصالة على الأريكة حيث كنت أجلس. ناوشني لحن أغنية "إنت عمري" لأم كلثوم. دندنته في رأسي لأستعيده.

جلست وتجرعت من كأس البيرة كأنني أحتشد بها، ثم بدأت العزف خافتا، وواصلتُ العزف. عاودتني خبرات تعلم المعزوفة، والمناطق التي كنت أخفقت فيها في البداية وكيف أتقنتها. داهمني مزيج غامض من الشغف بالعزف وبالشجن. انكفأت على العود كأنني أشكو إليه وأنصت في الوقت نفسه إلى شكواه.

كانت يدي تمسك بالريشة، تطرق الأوتار بسرعة ورشاقة بينما عقلي يشرد، أتذكر بينما أعزف حالة غامضة شعرت بها قبل أسبوع، حين كنت أستمع إلى أغنية (The Diary of Jane)، لفريق (Breaking Benjamin). كنت مخدرة تقريبا لكن منتشية وسعيدة، أرقص وحدي بين جموع لا أعرفهم، شباب وفتيات، يعلونا جميعا صوت المطرب الأجش في الفريق، وتدق طبول الإيقاع الصاخب لموسيقى "الميتال". وتومض الأضواء الإلكترونية في ارتعاشات تتماثل مع الإيقاع. أرفع يديّ الاثنتين بصخب وأصرخ صرخات قصيرة متوالية أعبر بها عن نشوتي. وعن رغبتي في أن تستمر الحياة بهذا الصخب للأبد. ثم أعود لأصرخ مع صوت الفريق:

If I had to I would put myself right beside you
So let me ask, would you like that? Would you like that?

عدت إلى المقطوعة التي أعزفها، حيث تعثرت عند مقطع كان على اللحن أن يتقمص فيه صوت أم كلثوم وهي تغني "ابتديت دلوقت بس.أحب عمري. ابتديت دلوقت أخاف. لا العمر يجري". توقفت مستاءة. كررت اللحن في ذهني ثم عزفته حتى انضبط، وواصلت.

استعدت مرة أخرى شعوري في تلك السهرة التي سهرتها وحيدة. عندما عدت إلى الطاولة الصغيرة القريبة من "البيست" المخصص للرقص تجرعت من البيرة أمامي ورحت أستدعي كلمات أغنية (The diary of Jane) مرة اخرى.

Something's getting in the way
Something's just about to break
I will try to find my place
In the diary of Jane
So tell me how it should be!

ناوشتني ملامح وجه زياد. ابتسمت، لأنني انتبهت، في تلك الليلة، أنني لأول مرة، وربما منذ كان عمري 16 سنة أعيش من دون علاقة لأكثر من ثلاثة شهور، بل وأبدو فعلا كمن لا يكترث بذلك إطلاقا. لم يحدث لي هذا أبدا خلال عشر سنوات مثلا، كنت أخرج من علاقة لأخرى كأنني أبدّل ملابسي. علاقتي بزياد عموما علاقة غريبة. كنا منسجمين جدا،

لكنه من البداية أكد أنها علاقة حرة، يمكن لأي منا أن يفعل أي شيء، طالما أن الثقة تجمع بيننا، وطالما لا يخفي أي منا شيئا عن الآخر. وبمرور الوقت وجدته هو الذي يعاني من الغيرة. لم يحتمل الفكرة. فكلما التقيت صديقًا أو شخصًا لا يعرفه يتصور أنني أنام معه. الحقيقة أنني منذ تعرفت إلى زياد بالفعل لم أمارس الجنس إلا معه.

أدرك الآن أن الهدنة التي أمنحها لنفسي في جوهرها سؤال عن تناقضات الرجل، وكل رجل عرفته. يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون ما لا أحب أو أتصور، رغم المطولات الممجوجة عن التفاهم والعقلانية والحب وبلا بلا بلا.

استعدت شريطًا ذهنيًا يضم صورًا لرجال عرفتهم، ونمت معهم، وأبكاني بعضهم وأبكيت عددًا منهم أيضا. ابتسمت لسذاجة اختياراتي الأولى لعدد من المتخلفين الذكوريين الذين انتهت علاقتي بهم بعد أن أحسست أنهم يعاملوني كـ"شرموطة". مع أني كنت أرد لهم اتهاماتهم. لأني لم اكن أكذب على نفسي. كنت أنام مع من أحب، أما هم فكم كذابًا منهم وجد في كلمة الحب طريقًا لجسدي؟ وكم شخصًا منهم جرحني لمجرد أنه شعر بالملل أو بدأ يبحث عن جسد آخر؟

وبدلًا من أن ينصرفوا في هدوء، ويتركوني ألملم جراحي كانوا يُنظّرون على ميتين أمي، يثرثرون عن عقدي النفسية، وتفسّخ البيت الذي تربيت فيه، أو عن عقدة البحث عن أب، وبينهم من وصفني بأني آكلة الرجال، التي تبحث عن صيد جديد كل يوم لتنتقم من أبيها في شخصهم،

وأطرفهم، حاتم، الذي بصراحة أعتبره أكثر من تعامل مع جسدي بحب، أو لأقل بحساسية وتفاهم، وصفني بأنني أشعر بعقدة اضطهاد، وأريد أن أثبت لنفسي أن كل رجل ألتقيه يمكن أن يقع فورًا في غرامي. و لم أصادف بينهم من يوجعه ضميره لليلة واحدة لإدراكه أنه هو العاهر لا أنا. ابتعدت عن هذه الأجواء من وقت طويل، وانخرطت في أوساط رجال ينتمون لأفكار أكثر تحررًا، وآفاق أوسع في فهم العلاقة بين الرجل والمرأة، ومع ذلك فقد خيّب الكثير منهم ظني، وبعضهم تسببوا في مروري بحالات نفسية سيئة غارقة في الإحباط والاكتئاب وعدم الرضا عن ذاتي أو عن هذا العالم. كنت أشعر أنني نسيت كل تلك الأجواء المحبطة، لكن يبدو أنني كلما تذكرتها لا تزال توجع لي قلبي.

أحسست برغبتي في التدخين فتوقفت عن العزف. نهضت وبحثت عن سجائري في حقيبتي الصغيرة، أشعلت سيجارة وعدت إلى مكاني. ضايقتني ذكرياتي مع زياد. "معلش"، قلت لنفسي، كأني أهدهد روحي وأُذكّرها أنني قبل سنوات؛ حين كنت أخرج من علاقة ما، أعيش أيامًا سوداء من البكاء والأسى. و لم تعد هذه حالي.

بعد لحظة تخيلت نفسي نائمة مع حازم؛ النائم في الغرفة الآن على بعد خطوات. قلت، ربما لهذا أبديت اهتمامًا مبالغًا فيه منذ التقيته اليوم بالمصادفة ووجدته حزينًا هكذا. لكن هذا شأني دائمًا. أهتم بالناس بطريقة مبالغ فيها، وأتورط في الحب باستمرار، وغالبا مع أشخاص لا يمكن أن يجمعني معهم شيء.

***

سمعت صوت كُحّته قرب الفجر، كان يكح وكأنه تعرض لنوبة سعال. نهضت ودخلت الغرفة على أطراف أصابعي الحافية. كان الضوء القادم من الصالة منعكسًا على وجهه. التمع وجهه وكان يبدو متعرّقًا. تأملت وجهه. اتكأت على جنبي ناظرة إليه. استمر في النوم، يتنفس في عمق. وجهه يبدو حزينًا. شعرت بشيء من الهيجان، وبرغبة قوية في تقبيله هكذا وهو نائم. فكرت للحظة أن أغتصبه. قبلت جبينه قبلة خافتة. ومسحت جبيني على وجهه. تنفس بعمق وعدل رأسه لينام الآن على ظهره.

سمعت صوت أنفاسه مزيجًا من التنفس والحشرجة، نظرت إليه وأدركت أنه يغط في نوم عميق. تأججت شهوتي فجأة. استعدت عزفي للحن "إنت عمري"، داعبني إحساس الغبطة لتمكني من عزفها أكثر من أي مرة سابقة. شعرتُ بالحسرة لأنه لم يسمع عزفي. وضعت يدي على بطني العاري وتحسست السُرّة بأناملي قبل أن أمررها قليلا أعلى السوِّة. تخيلت أنه يعزف لحنًا على الجيتار. تخيلت أصابع يديه على الجيتار. شعرت بالإثارة الشديدة. أدخلت يدي تحت "الكيلوت"، وضعت خنصري على بظري. قربت وجهي من كتفه وتسللت رائحة عبق عرق خفيف من تحت إبطه. سرى تيار من النشوة في جسدي كله، كارتعاشة. توقفت للحظات، واستدرت على جنبي واقتربت من جسده حتى التصق صدري بظهره، لم يتحرك من مكانه. كنت في قمة هيجاني، لكني أدركت أن شيئا لن يخرجه من حزنه، كما يبدو أنه مرهق تماما. عدت أداعب نفسي و لم أترك بظري حتى انتهيت.

***

في الصباح استيقظت عارية. انتبهت أنني لست نائمة في غرفتي. عاد وعيي، فمددت يدي بجواري، لكني لم أجده قريبًا مني. أبعدت ذراعي قليلًا وواصلت تحسس الفراش. لكن كفي لم تلمس سوى الملاءة الناعمة. فتحت عيني فلم أجده. "حازم". ناديت عليه بصوت حالم وانتظرت لكنه لم يرد. عاودت النداء بصوت نصف ناعس، بصوت ناعم ورقيق، بلا جدوى. أنصتّ قليلا. كان الهدوء يغمر البيت، بينما تصلني عبر الشارع، أصوات مرتجلة، كوشيش بعيد. تنهدت بأسى، ثم نمت على ظهري بينما كان إبهام قدمي اليمنى يداعب ثقبًا نسيجيًا ناعمًا، تبينته الآن فقط، في اللحاف الوثير الذي كنا نتغطى به معًا طول هذه الليلة.

دون كيشوت

"فليستفزك نهداي. رغبةً في غضبك| أريد أن أرى عينيك تتثاقلان
ووجنتيك تبيضان والوهن يعتريهم| فإني أبتغي ارتعاشاتك؟
أريدك أن تنفجر بين فخذي| أن تُلبّي رغباتي على الأرض الخصبة..
لجسدك البلا حياء"

جويس منصور

حدّقتُ في عينيه لأول مرة، بشكل متعمّد، محاولًا النفاذ إلى مصدر قسوة النظرة التي يوجهها لي. وقلت له:

– أفهم من كده إن أنا متّهم؟ قصدي إن سيادتك بتوجّه لي اتهام؟

وانتبهت أن حرف السين خرج مني بصفير أعلى من المعتاد.

نظر لي بنفس القسوة، ثم رسم ظلّ ابتسامة، مُسلّطا نظره إليّ بعناد.

اعتدل في جلسته وهو يعود بظهره ليسنده إلى ظهر الكرسي. رمقني للحظات ثم ضحك. حاولت الحفاظ على رباطة جأشي، مُثبّتًا نظري في عينيه.

أمسك بعلبة سجائره المارلبورو، أخرج منها سيجارة. وضعها بين شفتيه، ثم ألقى بالعلبة على المكتب، فوقعت في منتصف المسافة بيننا. قال لي بمرح:

– تقدر تدخن لو عايز.

– شكرًا.

أمسكت بعلبة سجائري وأخرجت منها سيجارة، بينما كان يتأملني ويستعيد نظرته الصارمة، ثم قال بنبرة بدت لي أعلى من النبرة التي استخدمها منذ دخلت مكتبه:

– وهوّا أنا لو عايز ألبّسك الجريمة دي من الأول ما كنتش أقدر أعمل كده؟

نفثت دخان السيجارة ثم التفت إليه وقلت:

– ما اعرفش.

نهض فجأة ووضع ذراعيه على المكتب وأسند جسده على يديه وهو يقترب مني ويقول بلهجة تهديد واثقة ومتحدية:

– طيب اعرف يا حبيبي. لأ أقدر، وأقدر كمان أعمل حاجات ما تتخيلهاش.

صمت للحظات بدا كأنه يحاول أن يتأكد من تأثير كلماته عليّ، ولأول مرة أحسست أنني أرى وجهه بتركيز، وبدا لي وسيمًا: وجه مربع وعينان سوداوان تزيد الإحساس بدكنة لونهما رموشه التي تبدو مكحلة، وشعر متموج مصفف بعناية. انتظر للحظات كأنه يقرأ ما يدور في خلدي.

لكني لم أنطق بشيء، نحيت نظري عنه وتنحنحت فقال:

- ما بتردّش عليّا ليه؟

قلت: مش عارف أرد على سيادتك بإيه بس؟

- إنك تقول إنك عارف إني لو عايز ألبّسك الجريمة دي هالبّسهالك إنت أو أي حد تاني. بس أنا مش عايز أعمل كده. أنا مش عايز أظلم حد. أنا عايز أعمل شغلي، وأوْصل للجاني الحقيقي.

هززت رأسي، ولا أعرف من أي زمن جاءتني ملامح صبي صغير كنا نسميه في طفولتنا بالبغبغان، كان يردد كل ما يسمعه بلا أي تعبيرات تخصه. لم تكن لديه عبارة يقولها. فقط يردد ما يسمع ودومًا وأينما رأيناه. تمنيت أن أكون مثله في هذه اللحظة، محظوظًا بمرض التوحد، وأن أردد خلف هذا الضابط كل ما يقول دون أن أضطر للتفكير والرد عليه.

قلت له بنبرة محايدة، وكأنني أحدث نفسي أكثر من كوني أوجه الكلام إليه:

- يعني أنا مش متهم؟

جلس وتأملني ثم قال:

- على فكرة إنت حظك كويس.

نظرتُ إليه مستفسرًا و لم أنطق، فقال:

- يعني إنت راجل متعلم، وباين عليك فعلا بتفهم، يعني. قاري لك كلمتين. وبصراحة أنا باحب أتعامل مع الناس اللي زيّك. تقدر تقول كده إني باقدّرهم.

توقف عن الكلام صامتًا للحظات، ثم أردف: وبصراحة برضو أقدر أقول لك، وده مش غرور مني، إني كمان ظابط مباحث مثقف.

وسدد نظرته في عيني كأنه يقرأ في وجهي انطباعاتي عما يقول. ويبدو أنه لاحظ ما جعله يقول: بس زي ما إنت فاهم. لأ. مش ثقافة الصيّع اللي يقروا لهم كام كتاب تاريخ وفاكرين إنهم مثقفين. لأ. أنا قاري أكتر مما تتخيّل. فاهم قصدي إيه؟

شردتُ للحظة متقصيًّا فكرة رجل الشرطة المثقف فيما قرأت وفي الأفلام، لكن ذاكرتي لم تسعفني بشخصية مميزة. صحيح كانت هناك نماذج كثيرة لضابط الشرطة الأمريكي المحترف، لكن دائمًا كان المتهم أكثر ثقافة. أو بشكل عام، كانت هناك، دومًا، شخصيات مجرمة مبهرة على مستوى الذكاء والثقافة، أما رجل الشرطة فغالبا ما يُقدّم بشكل نمطي، على عكس المخبر السري مثلًا الذي احتكر الدهاء، وانتبهت على سؤاله فقلت له:

- لأ، الحقيقة مش قوي.

تأملني قليلا ثم قال لي:

- غريبة؟

تأملته للحظة، ثم سألت: إيه هوا اللي غريب سيادتك؟

نظر إلى ملف ممتلئ بالأوراق أمامه وقال لي:

- المعلومات اللي عندي بتقول إنك في الغالب متحذلق، وإنك عمرك ما تقول على حاجة ما تعرفش، وبتفتي في أي حاجة حتى لو مش عارف، بس دلوقت كل ما أسألك على حاجة تقول لي مش عارف.

استجمعت شجاعتي وضحكت ضحكة قصيرة، فأبدى دهشة شديدة ثم ابتسم قائلا:

- ممكن أفهم إيه سبب الضحك؟

- أصل بصراحة لمّا سعادتك قلت المعلومات اللي عندي..

قاطعني بسرعة:

- يعني إيه؟ مش مصدق إن عندي معلومات؟ تحب أجيب لك تاريخك وتاريخ عيلتك؟

- لا لا. سعادتك فهمتني غلط. أنا مش باشكك أبدا في المعلومات. بالعكس.

نظر إليّ لوهلة ولمحت نفاد صبره الذي أخفاه خلف دخان سيجارة

أخرى أشعلها تقريبا عقب انتهاء سيجارته. ثم قال:

- طيب انجز. إيه اللي بيضحك في كلمة معلومات؟

- الفكرة إن سيادتك لما قلت معلومات.. الصراحة جه في بالي الطريقة التقليدية بتاعة المباحث هنا. بيجمعوا معلومات كلها ورقية، فلما بيواجهوا الناس بيها الناس بتحس إنهم بيتكلموا عن نماذج شبههم بس مش هما بالظبط.

- مش فاهم.

- يعني تحريات المباحث بتعتمد غالبا على معلومات عادية موجودة في أي مكان: السن والشغل وعنوان الإقامة والحالة المدنية، وعدد الأولاد. يعني. معلومات من النوع ده. وبعدين معلومات تانية كده بيلمها شوية مخبرين غلبانين.

صمت للحظة ونظرت إليه فأشار لي بيده وهو يقلِّص ما بين حاجبيه لكي يتعجلني بإلحاح، كأنه يقول لي "هات م الآخِر" ويطالبني بالمتابعة فقلت:

- بعدين الظابط ياخد الكلام ده ويواجه المتهم أو أي حد بيحقق معاه ويفهِّمُه إنه عارف عنه كل حاجة. بس الحقيقة إن اللي عارفه ده كلام على ورق. بس الحقايق وسلوك البشر حاجة تانية خالص.

ابتسم ابتسامة صفراء، وتأملني لوهلة، حافظت خلالها على ابتسامة ودودة مغتصبة، ومرتبكة، وحاولت أن أثبِّت عيني في عينيه، وألا أرمش.

لكنه أطال الصمت فتوقفت عن الابتسام ومنحت لوجهي تعبيرًا جامدًا، فتحولت ابتسامته لضحكة ثم قال:

- طيب هتكمل الجملة ولا هافضل مستني كتير؟

نظرتُ له مشدوها، فلم أكن أتوقع أنه ينتظر مني إكمال الفكرة. فالفقرة المقبلة من الكلام بدت لي بديهية، و لم أفهم هل يريدني أن أؤكدها له. أم أنه لم يفهم ويريدني أن أكمل الكلام بشكل واضح.

قلت له: حضرتك متصور إن الكلام مخلصش؟

ابتسم لي ابتسامة المتذاكي الفاهم: أيوه طبعًا.

هرشت في رأسي تلقائيًا، وشعرت بسخونة تلهب وجنتي، و لم أعرف ماذا أقول.

لا شك أنه يفهم جيدًا ما أود قوله: وهو يعرفه كما أعرفه ويعرفه كل من في هذا البلد: في حال غموض الحادث، وعدم قدرة البحث الجنائي على التوصل للجاني الحقيقي، قد يلجأ المسئول عن القضية للحصول على اعتراف ما. وهنا قد يتم التركيز على فكرة تضييق دائرة المشتبه بهم إلى أدنى مستوياتها، ثم اختيار أكثرهم تورطا ودفعه للاعتراف بأي وسيلة.

اقشعرَّ بدني. وأنا أتصورني في غرفة مظلمة، عاريًا، يتم ضربي، معصب العينين من مخبرين ثقيلي الأيدي والأرواح، غليظي القلوب، أو ممدًا عاريًا على أرضية غرفة رطبة حقيرة، بينما الكهرباء تصعق جسدي؛ فيتفجَّر الألم ما بين قلبي وموضع الصعق، حيث ينتفض جسدي فاقد

القوة والحيلة. ويبدو أنه أحس بما أفكر فيه، إذ التمعت عينه ببريق غريب ومَض للحظة وهو يتأملني.

وجدت نفسي أقول له: إذا عايز تسمع بقية الجملة فهي كالتالي: لما بيتفاجأ الظباط إن التحريات ما فيهاش حاجة مفيدة بيلجأوا فورا للتعذيب. وبما إن أغلب المعلومات اللي ممكن تيجي من التحريات ما تفيدش بحاجة، فالنتيجة إن تعذيب أي متهم بيكون الطريقة الأولى للحصول على المعلومة.

اعتدل في جلسته ثم أمسك بعلبة سجائره، ونهض من مكانه، ثم استدار من خلف المكتب بخطوات بطيئة. اقترب مني حتى أصبح بجواري تماما. مد يده التي تحمل علبة السجائر المفتوحة ووضعها أمام وجهي مباشرة. نظرت لها، ثم وجَّهت نظري إليه، فوجدته يبتسم لي ابتسامة بلا معنى. وبعد تردد تناولت منها سيجارة.

تأملني للحظة وأنا أشعلها، وجلس على الكرسي المقابل لي، لا تفصل بيننا سوى منضدة صغيرة. بدا متوترا نوعا ما، لكن ملامح وجهه تغيرت وبدت لي للمرة الأولى تحمل سمتا إنسانيا.

قال: إنت بتشكك في كفاءتي؟

قلت: حاشا لله سيادتك. أنا باتكلم عن وضع عام.

صمت قليلًا وجذب نفسًا من سيجارته وقبل أن يدفع الدخان خارج صدره قال:

- حتى لو افترضنا إن اللي بتقوله ده صحيح. تفتكر فعلا إن كل ظباط الشرطة بيشتغلوا بالطريقة دي؟

جذبت بذوري نفسا من السيجارة، وقلت له بعد تفكير:

- أكيد مش كُلهم. لأ ما اعتقدش. لازم يكون فيه ظباط مؤمنين بكفاءتهم ودورهم الحقيقي في تحقيق العدل. بس أعتقد إن دول أقلية مش أغلبية.

نظر لي بهدوء ثم ابتسم. وبدا كأنه يفكر في الكلام ثم قال: عندك حاجة تانية عايز تقولها؟

قلت له: لأ.

قال: طيب. تقدر تتفضل دلوقت.

باغتني بهذه الكلمات حتى تصورت، للحظات، أنه يتلاعب بأعصابي، كمفتش مباحث قديم يلعب سيكولوجيًا مع المتهم. ولكني حينما رأيته فجأة لم يعد مباليا بوجودي، ناظرا بشرود جهة الشباك المغلق خلف مكتبه نهضت. ترددتُ قليلًا ثم ودّعته ومددت يدي باتجاهه، فاستدار باتجاهي وصافحني بلا حماس. لكنه لم يتحرك من مكانه.

خرجتُ من الغرفة، فوجدت جنديًا شابًا يهبّ إلى الباب وينظر داخل الغرفة. ويبدو أنه حصل على إشارة من الضابط جعلته يعود إليّ ويشير باتجاه ردهة طويلة ويقول:

- الخروج من هنا.

تنفست بعمق وأنا لا أكاد أصدق أنني خرجت. في طريقي للخروج وجدت عددًا من الغرف الصغيرة المتجاورة مفتوحة الأبواب. التفتُ إلى إحداها فوجدت شابًا يقف عاريًا، لا يرتدي سوى سرواله الداخلي، يدير لي ظهره ليواجه ظابط تحقيقات لم أتبين ملامح وجهه.

أدرت وجهي وأسرعت من خطواتي خارج الممر الدهليزي، كمن ينجو بنفسه.

عندما خرجت من المبنى لفحتني الشمس فتنفست الصعداء، وغادرني ذلك الشعور القاتل بالوجل الذي صاحبني على مدى يومين، وأنا أتمشى مبتعدا، واكتشفت أنني لم اخطط لأي شيء عقب هذه المقابلة. قررت أن أتوجه إلى أي مقهى قريب حتى أستجمع شتاتي.

بعد لحظات من جلوسي على المقهى وجدت أمامي ثلاثة رجال يجلسون على ثلاث مناضد متجاورة، وكل منهم يمسك بجريدة يخفي وجهه خلفها. تلبّسني إحساس بأنهم، ثلاثتهم، فتحوا صحفهم بمجرد جلوسي، لكن كيف لهم أن يعرفوا أنني سأحضر إلى هذا المقهى؟ ابتسمت حين وجدت في السؤال إجابة نافية على ارتيابي منهم. وطلبت القهوة من "عم سعيد" الذي سمعت زبائن قبلي ينادونه بهذا الاسم فناديته به بنفس المودة التي لاحظت الناس ينادونه بها. وبعد دقائق أحضر لي القهوة بنفس التجهم الذي يوزعه على الجميع بلا استثناء!

تأملت "وِشّ القهوة" فارتجفت حين طالعني وجهها الميت. والتفت حولي بحذر وذعر. لكني لم أجد شيئًا مريبًا، ومع ذلك، فحين عدت

بنظري إلى القهوة وجدت وجهها الميت، بعينين مفتوحتين مذعورتين.

حاولتُ استدعاء وجه الفتاة الأخرى، فكدت أصرخ مذعورًا من فكرة أنني لم أستطع تذكر ملامحها. هل ضاجعت وجهًا مصقولًا بلا ملامح؟ وجها مطموسًا؟ هل يمكن أن يمارس الشخص جنسا مع إنسانة ولا يعرف ملامحها؟ أقصد ينسى ملامحها؟ بينما ينحفر وجه أخرى لم تتعد العلاقة بيننا عدة ساعات إلى الأبد؟ ها هو الآن يطالعني من على سطح فنجان القهوة بكل تفاصيله.

ارتعتُ وأفرخ قلبي حتى ارتجفت، ولاحظت أن جبهتي تعرَّقت بشكل ملحوظ فمسحتها بيدي، وبالأخرى أمسكت بفنجان القهوة، ولاحظت أن يدي التي أمسكت بها الفنجان ارتعشت قليلًا، ولكنني قبل أن أتجرعها مباشرة، امتنعت عن تذوقها. لست أعرف من أين اقتحمني الهاجس الذي هيأ لوعيي أنني إذا تجرعت القهوة فسوف أتجرع معها تلك الصور؛ صور الوجوه التي رأيتها عائمة على "وش القهوة"، وأنها لن تبرح خيالي بعدئذ أبدًا!

شعرت بضيق أنفاسي وبتسارع دقات قلبي بسبب الاضطراب. حاولت أن أسيطر على نفسي، فارتخيت جالسًا بينما ارتطم بصري مرة أخرى بالقراء الثلاثة الذين يتخفّون خلف صفحات جرائدهم اللعينة. وللحظة أحسست أن صورهم تتحرك كأنهم شخصيات كارتونية يجسدون خداع بصر، بينما لا وجود حقيقيًا لأي منهم.

سمعت صوت أنفاسي ولاحظت أن قلبي يخفق بعنف، وأن أنفاسي تتسارع.

***

نهضت واتجهت إليهم، وانتصرت على إحساسي بارتباك خطواتي. وقفت أمام الأول من اليمين ثم انتزعت منه الجريدة، فإذا بي أمام امرأة أجنبية شقراء، كانت تنظر في صورة لرجل وامرأة يركبان مركبا شراعيا يمخران سطح البحر، وبعد لحظة كانت تنفض عن نفسها المياه التي تدفقت من الصورة فور أن نزعت منها الجريدة بعنف!

وإزاء ارتباكي فقد انصرفت متحولًا للثاني فوجدت رجلًا كفيفًا يضع الجريدة أمام عينيه كأنه يخفي عماه عن العالم، وعندما لاحظت عينيه الحائرتين، اللتين يرتجف بؤبؤاهما بلا توقف، أصابني الخجل، فأعدت له جريدته متجها للثالث الذي كنت الآن على يقين أنه، بلا شك، الشخص المكلف بمراقبتي. ولكنني حين وصلت إلى المكان الذي كان يجلس فيه قبل لحظات، وجدت كرسيه خاليا. كان قد غادر المكان. ارتبكت و لم أعرف ماذا أفعل.

هكذا كان خيالي يهيئ لي ما يمكن أن يحدث إذا نهضت من مكاني الآن، وتوجهت للتعرف على شخصية قراء الصحف الثلاثة. وإزاء زيادة إحساسي بالارتياب من أنني مراقب باستمرار، قررت أن أغادر المكان بلا أدنى تردد، مقاومًا رغبة ملحة في التقيؤ.

بمجرد خروجي من المقهى تلبسني الهاجس بأن الثالث الذي تهيأ لي أنه غادر المكان ليس سوى الفتاة الميتة، أقصد. المقـ.. المقـ.... نعم.. نعم المقتولة. كانت تجلس تتصفح الجريدة، وحين انتزعتها منها وجدت وجهًا مطموسًا. وجها بلا ملامح. مسطحًا تمامًا. هل هو وجه دليلة؟ هل نسيت ملامحها فعلًا؟ ولكن سرعان ما استعدت الوجه المختنق المزرق فارتجف جسدي بقوة.

انتحيت بجوار أقرب جدار وتقيأت. لم يكن في معدتي أي شيء. كان التوتر قد أنهكني على ما يبدو. أشعر بالإعياء. أريد أن أنام في فراشي الآن.

***

بلا أدنى مقدمات وجدتها تقف أمامي عارية، يمسك بها رجلان عاريان؛ الأول أصلع غليظ الملامح، عيناه واسعتان تبرقان بالشر، يرتفع اعلاهما حاجبان ثقيلان، يضع يديه تحت إبطيها المكشوفين بسبب ارتفاع ذراعيها كأنها تبتهل لمنقذ لا يراه سواها، ثدياها متحرران، نائمان على صدرها، وحلمتاهما ثائرتان، فيما الثنيات الرقيقة عند موضع التقاء الصدر بالإبط تكشف عن مدى النعومة الحسية لجسدها. أما الثاني فلم أتبين ملامحه. ويقف خلف الأول كأنه يريد أن يهاجمها ولكن ليس واضحا ماذا يريد منها.

حين بدأتُ الحركة باتجاهها اكتشفت أنني ثقيل بدرجة لا تحتمل، كأن

قوة شبحية تمسك بقلبي لكي تشل حركتي. وبعد لحظة اكتشفت أن ساقيَّ مقطوعتان وأني مُقعد. وهكذا اكتشفت أنني عاجز تماما عن حمايتها وعن كل شيء. ثم رأيتها تصرخ بألم هستيري ثم تقع على الأرض غارقة في دماء كانت تنزف من عينيها.

***

انتفضت من النوم مفزوعًا. استعدت الحلم كاملا تقريبًا، لكني مع استعادة مشاهده أصبت بخوف غامض مشوب بحالة من الاكتئاب. وتقلبت في السرير مؤرقا ومتعبًا. خائفًا ومحتارًا. كان الخوف ينهش روحي. حتى هتفت لنفسي أن الانتحار ربما سيكون المخلص الوحيد لهذا المأزق الذي أعيشه.

نهضت من الفراش، واتجهت صوب الكرسي الصغير الموضوع قرب النافذة، شعرت أن قلبي يخفق بسرعة، وجسدي مبتل بالعرق. مسحت وجهي بيدي، وألقيت بنفسي على الكرسي وتناولت سيجارة أشعلتها وأنا أحاول أن أطرد تفاصيل الحلم المتشبثة بخيالي، بلا جدوى. استعدت وجهي الفتاتين، ووجدتني أتذكرهما جيدا، وليس على النحو الذي راودني في الحلم، ومع ذلك شعرت بغصة.

***

ها أنت الآن في وسط ورطة لا يمكن لأحد أن ينقذك منها، والشرطة وصلت إليك بأسرع مما تخيلت بكثير، ولن يكون أمامك سوى أيام قبل أن تجد نفسك موضوعًا في حجرة حقيرة رائحتها عفنة، يجاورك فيها مجرمون حقيقيون، بلطجية، عتاة، تجلس فيها شبه ميت في انتظار تحويلك إلى المحاكمة، وبعد أسابيع أخرى قليلة، ربما تجد نفسك محكومًا عليك بارتداء البدلة الحمراء. معقول؟ ألا يمكن أن يكون هذا كله كابوسًا؟

***

لكن مع الأسف لم يكن شيء من هذا كابوسًا، بل هو الواقع، الحقيقة المجردة. أكاد لا أصدق أن الرغبة تفعل بك كل ذلك؟ لم تعترف لنفسك في الوقت المناسب أن تلك الفتاة المجنونة قد حوّلتكَ إلى عبدٍ جنسي لها! عبدٌ جنسي؟ نعم. هذا هو. الحقيقة صادمة دائما. لكن دعنا نواجه الأمر، نفذت خطتها لكي تعيش ذروة خيالها الجنسي المسعور، وتنفذ إحدى فانتازيا شهوتها باستخدامك وتحويلك إلى مجرم. مجرم؟ يا إلهي أنت تستخدم كلمات صادمة. مرة أخرى نعم. علينا مواجهة الحقائق. مجرم مثل أي ممن تأنف من مجرد أن تتخيل وجودك معهم في زنزانة. وربما أبشع قليلًا. فأغلبيتهم قد يكونون تورطوا لأسباب أقوى منهم، لظروف قاهرة ربما، ولعسف الحياة، أما أنت فبماذا أصفك؟ نعم، خبرني بماذا يمكن أن تصف نفسك؟

***

النظرة الأولى، كالعادة، نظرة غير عادلة. فتاة ذات شعر أسود فاحم ناعم ينسدل على كتفيها. بشرة بيضاء لامعة لجسد بضٍّ مثير. تجلس على مقربة منك، مع فتاتين أخريين ورجل. تمسك بمبسم الشيشة وتدخن منها بشفتين شهوانيتين. فستانها الأزرق عاري الكتفين، والذراع التي تمسك بالشيشة مستندة على امتداد ظهر الكرسي الوثير كاشفة عن ثلثي إبطها، وعن لون بشرتها الناصع معكوسا في بطن كتفها وذراعها.

أعترف أنها وتّرتني، النظرة الأولى نظرة اهتمام، وإعجاب ورغبة ربما، بينما كانت نظرتها المبتسمة نظرة من تقرأ ما تراه عيناي. ترضي غرورها بها، عن نفسها. مثل أغلب نظرات شبيهاتها من الإناث. تتفحص جمالها في عيني الآخرين، رجالا وسيدات.

وكأغلب الرجال استقبلت نظرتها بمنطقي أنا، أنها قد تكون معجبة بي. وهكذا استمرت نظراتنا المتبادلة طوال الوقت الذي قضته هي جالسة مع أصدقائها. لكن نهوضها وتعمدها السير من أمامي تستعرض دلالها وجمال جسدها، خصوصا ساقيها العاريين، جعلاني أرى في جسدها هدفا لا يمكنني الإفلات من طغيانه.

عادة ما أنظر للمرأة نظرة أعمق من النظرة الأولى الشهوانية، متصورا أنني رجل لا يستثار إلا من عقله. كل امرأة مرت بي، وهي تضع مساحيق التجميل، وتصبغ شعرها، وتطيل رموش عينيها، وترتدي أزياء مثيرة يجردها عقلي من هذا كله، ويرمي بها تحت مياه دش بارد، ويحاول أن

يراها بفطرتها، ويختبر إذا ما كانت جميلة جمالًا طبيعيًا وحقيقيًا بالفعل أم أنها مجرد كومة من الزيف؟

لكن هذه الفتاة هي التي جردتني من كل هذا في لحظة.

***

دعيني أنظر إليك. دعيني أنظر إلى عينيك. إلى لسانك. دعيني أراك. انظري الآن لي. هل تريني؟ أم أنك تتأملين جمالك معكوسا في عيني. هل تسمحين لي؟ أريد أن أقبلك؟ لا ليس في شفتيك. أو رقبتك. لا. أريد أن أبدأ بقبلة خافتة وناعمة هناك. في الأسفل. استديري. دعيني أضع هذه القبلة أسفل بطن ركبتك مباشرة. أن أشعر بملمس ركبتك الناعم وبداية الساق جميلة التكوين هذه. امنحيني الآن قدمك. نعم هذه القدم. اليمنى التي سوف أرفعها قليلًا من يسراي، جهة قلبي. أقبّل ظهر القدم. وأناملها المنمقة بلطف صناعتها. أوه. ها أنت قد فهمتني الآن. نعم هذا بالضبط ما أريده. أن تداعبي بأناملك المثيرة صدري. سيلهب هذا شهوتي ويحرقني بها تماما، سترتقي مرتبة رغبتي فيك إلى القمة. وسوف تنظرين لي بابتسامة غنوج، تُبدين فيها دهشة مصطنعة، لكنها لا تتمكن من إخفاء إعجابها بما ترينه في عيني من رغبة فجرتها هذه الرُكبة، وهذه القدم وتلك الأنامل.

كيف يمكن لك أن تقرأني أفكاري؟ أن ترفعي الآن خصلات شعرك المستلقية على كتفك حتى يبرق إبطك. بياضه الشاهق يحيل إلى نعومة

مثيرة، أود الآن أن أقبّله. أن أمرر شفتي عليه من مركزه للطرفين والعودة. أن أدفن أنفي فيه متنشّقا عبقك الحقيقي، شفرتك الجنسية.

دعيني أنظر إليك، وفقط، حتى أفاجئك بقبلة أخرى، حيث لا تتوقعين. أعلى البطن مثلا، أو تحت الخصر مباشرة. دعيني أراك، أنت تثيرين جوع عيني. شهية بما يفوق الخيال. أنت أكثر من امرأة بالنسبة لي، أو قولي إنك امرأة بالشكل الذي يفوق معرفتي واحتياجي.

لو نمت الآن على ظهري فضعي قدميك على صدري. تحسّسيه بأنامل قدميك الفاتنتين متأملا تكوين جسدك من أسفل، وصاعدا إلى شاهقه من موضعي هنا على الأرض.

أو باغتيني. ماذا؟

- تذوّقني.
- أتذوقك؟
- من قدمي إلى منبت شعر رأسي.
- هذا كثير.
- الْعقني، وقل لي إحساسك.

***

بين المرة الأولى التي منَحَتْني فيها جسدها، وبين المرة اللاحقة مرت

شهور، اختفت خلالها، حتى فقدت الأمل، لكني لم أفقد رغبتي فيها. بالأحرى لم تبارح خيالي.

جمع بيننا لقاء بمصادفة محضة، وكانت هي المبادرة لدعوتي لنشرب قهوة في مكان ما، ومن المقهى إلى آخر، ومنه إلى بار، ثم إلى شقتي. تكلمنا عن أمها، وأمي، عن عملها، مندوبة لشركة تأمين، تسويق إعلانات، "ديلر" في كازينو قمار، ومنه إلى حياة الليل. تكلمنا عن الكذب والصدق، الفشل والنجاح، وعني، أنا مخرج الأفلام الوثائقية الذي لم يعرض فيلمه الأول بعد، وتكلمنا عن الحب، ووهم الحب، والخيانة، والزواج والطلاق، السينما والأفلام، الشهوة والجنس والكيميا، والأوضاع الجنسية، وعن الملل الجنسي، والجنس لليلة واحدة.

قررنا أن نمارس الجنس لليلة واحدة. استكملنا الشرب في شقتي من زجاجة فودكا كانت تستقر وحيدة فوق مكتب غرفتي، واستبدت بنا الفانتازيا، طلبت أن أصورها عارية بكاميرتي، وفعلت.

في عين الكاميرا وجدتها وحيدة، بالأبيض والأسود، في عريها وجدتها فقدت فتنتها. أصبحت أكثر إنسانية وطبيعية وحزنا.

كانت تتمشّى في غنج، تتزأزأ كما يقال، ثم تتوقف وتستدير لتنظر إلى الكاميرا بابتسامة محترفة، تتثنى وتمسك بنهديها، تمسح سُوّتها بهيام، فيما أقرّب أنا الكاميرا إلى مهبلها المحلوق البض. ثم إلى فخذيها وحتى ساقيها.

عند لحظة بعينها وضعت الكاميرا واتجهت إليها، وقد جننت برغبتي فيها، زنقتها في الحائط، تعانقنا بوحشية، التقت شفاهنا بقوة ولعق كل منا ما وجده من جسد الآخر أمامه. أمسكتْ أذني بشفتيها وعضتها عضا هينًا، فيما أنفاسها تنساب على جانب وجهي تلفحه بشهوتها. وفي كل اقتراب حميم تلفحني نسمة عطرية مزيج من عطرها ورائحة جسدها.

احتضنتني ثم أمسكت ظهري بقوة، ونشبت أظافرها في أردافي، وكنت في الأثناء أقترب لأداهم رقبتها بقُبل تقطعها عضات خفيفة، ومنها إلى نهديها. ألقم الحلمة وألعق الثدأة.

انتهينا بعد وليمة جنسية يصعب عليَّ أن أنساها، لكنها لم تكن ليلة واحدة كما اتفقنا، بل كانت شرارة انطلاق ليال أخرى عديدة. كشفت لي أنها مهووسة جنسيا، إلى حد أنني اعتقدت أن شيئا غير الجنس لا يشغلها. شهوانية، لا تكل من اقتراح أساليب مختلفة من الجنس اللطيف، إلى العنيف، ومن تمثيل مشاهد جنسية خيالية مثل الاغتصاب.

توالت القصص، مؤججة بفانتازيا الرغبات المطمورة: وبسيناريوهات عدة كانت فيها تتقمص الدور بعناية، المدرس وتلميذته الغنوج، المدير وسكرتيرته اللعوب، اثنان يلتقيان في أتوبيس فيمارسان الجنس في الزحام، رجل يصطحب عاهرة إلى بيته. امرأة تذهب إلى جلسة مساج فتغوي مدلكها، الجارة الهائجة التي تبحث عن جارها. وهكذا تحولت حياتنا إلى لقاءات جنسية يومية، وكانت حياتها وحيدة مع أم مريضة،

وعملها في الكازينو يتيحان لنا لقـاءات يومية اقتضت مني بعد فترة اللجوء للمقويات الجنسية.

لكنها تدريجيًا بدأت تقترح في قصصها الفانتازية سيناريوهات ثلاثية، رجلان وامرأة، ثم امرأة ورجلان، ومنه إلى سيناريوهات الألم كمولد للذة. الضرب، والتقييد، الجنس العنيف.

وكلما أحسست أننا استنفدنا كل شيء تفاجئني بفكرة جديدة. أشعلت شمعة وطلبت مني أن ألسعها بقطرات الشمع المشتعل. فيما كانت تتلذذ رغم الألم.

في مرحلة جديدة، بدأت تقنعني بأن نحوّل الفانتازيا إلى الواقع، أن تصطحب معها صديقة لنمارس الجنس ثلاثتنا. لم أقتنع بالفكرة. بدت لي خيالية وفانتازية، واعتبرتها وسيلة من وسائلها لتشغيل خيالنا الجنسي لكي تشتد إثارتي في علاقتي بها، لكنها لم تتوقف عن الإلحاح.

وبالتدريج نقلت إليّ هوسها الجنسي، حتى وجدتها تدخل الشقة يوما بصحبة فتاة سمراء بلون الكاكاو، أفريقية الملامح. لكن ملامحها جذابة. شعرها البني الداكن الذي تلتف خصلاته حول نفسه متروك حول وجهها يمنحها لمسة فطرية وحشية.

سلمت عليها مبهورا، فاقتربت تقبلني وهي تقول: "سناء كلمتني عنك كتير".

اصطحبتها سناء من يدها وأخبرتني أن اسمها دليلة. فهتفت لنفسي

كأنني من فرط ولعي بها كنت أردد اسمها الغريب "دليلة"!

اختفيا قليلًا في الغرفة الصغيرة التي تضع بها سناء أغراضها. ثم خرجت دليلة ترتدي ما يشبه ساريًا هنديًا، من قماش أحمر داكن مطرز بتطريزات ذهبية تمنح الرداء إحساسا بالرفاهية، لكن الساري لا يطول أبعد من منتصف فخذيها.

خلعتْ حذاءها واقتربتْ مني حافية، قدماها نحيفتان جميلتان، و لم إعرف ماذا أفعل من فرط استثارتي. مددت لها يدي فمنحتني إحدى يديها فقبلتها بغرام.

جلست بجواري على كرسي وثير في الصالة الصغيرة التي تطل عليها غرف النوم، ووضعت ساقا على أخرى؛ كاشفة عن فخذيها المكتنزين بلا امتلاء، وعن ركبتي ساقيها اللذين كانا يلتمعان بلون الشوكولاتة. كانت الركبتان داكنتين قليلا بالنسبة للون بشرتها. لاحظت أن قدميها الحافيتين ليستا جملتين كما كنت أتمنى، كما تبينت خشونة كعبيها، ومع ذلك، فإن أصابع قدميها القصيرة بأظافرهما المصبوغتين بأحمر قان دفعا دماء شهوتي إلى رأسي.

***

ماذا فعلت سناء؟ التفاصيل عادية: رقصتا معا عاريتيْن. مسّدت كل منهما جسد الأخرى أمامي، وقبّلت كل منهما الأخرى. كانت سناء تقبل

صديقتها السمراء بحسية مفرطة، وبشهوانية، وتغمض عينيها ثم تخطف نظرة لي كأنها تتأمل ما تفعله في عيني. شرعت تبحث عن مكامن لذتها لتقبلها بحسية، ثم تتعريان تدريجيا حتى تحولتا في الظلام إلى جنيَّتين ارتفع صوت شبقهما حتى ملأ وعيي.

ومنحتني سناء الإذن بأن أتحسس جسد دليلة وأقبلها. أن أتحسس الجسد الرطب بشفتي، فيما أتنشق عطرا دبقا نفاذا يشبه رائحة الصندل. أن أتوقف عند المناطق الداكنة أكثر من غيرها؛ أتأملها دون أن تلاحظ هي، خصوصا فتحة الشرج والركبتين والكوعين. كانت سناء مستسلمة لي بشكل بدا لي مريبا، ومثيرا أيضا. حين انتعظتُ تمامًا ولاحظت سناء ذلك، فتحت لي ساقيها وهي تنظر لي نظرة غريبة كأنها تقول لي: إن هذا منتهى علاقتي بدليلة. إلا الإيلاج.

ماذا فعلت بي سناء؟ جعلتني عبدًا لشهوتها، ووضعت دليلة ثالثة بيننا، واستخدمتها كجزرة، أو ربما كتفاحة الجنّة المشتهاة التي يمتنع عليَّ أن أقربها إلا إذا نفذت رغبات سناء التي كانت تزداد جنونًا.

طلبت مني ذات مرة، وقبل أن ألجها مباشرة أن أقوم بخنقها، بيدي، بقوة وبلا تمثيل. حاولت أن أفعل ذلك بلا حماس، فإذا ارتخت يداي على عنقها تتحول إلى شيطانة هائجة؛ حتى إنها صفعتني مرة من شدة الغضب، وكدت من فرط غيظي أن أقتلها. لكن المدهش أنني حين نجحت في تنفيذ رغبتها، وأحكم قبضتي حول عنقها كنت أرى وجهها المحمر المنتفخ المتعرق وهو يفيض بالنشوة!

انتهى الأمر بي منفذا لجنون شهوتها، هي التي أرادت أن ترى تأثير محاولة خنق رجل لامرأة أخرى في ذروة هياجها، وأدركت أن ذلك يصل بها إلى الذروة، إلى درجة أنها بلغت "الأورجازم" مرة دون أن أمسها بسبب مشهد خنق دليلة المستسلمة بشكل مثير.

كان ذلك غريبًا بالنسبة لي، و لم أكن قادرًا على استيعاب فكرة التذاذها من مشاهدة العنف، كأنها كانت تتخيل نفسها في الموقف نفسه، لكنها، ربما في الواقع لا تحتمل الألم. فكرت أن أنسحب من هذه الدائرة الجهنمية. لكن شيطانًا صغيرًا في داخلي كان يهمس لي بأن خبرة كهذه لا يمكن أن أفوّتها.

كانت دليلة لا تقل عنها جنونًا، تمتثل لما تريده بشكل شهواني، وتفعل كل شيء، وهي تسدل عينيها قليلًا فتبدو مثل شيطانة شهوانية تدعي البراءة، وكان ذلك تحديدًا ما يفجرني بالإثارة.

كان من الطبيعي أن تحتل دليلة جانبًا من خيالي. وبسبب عدم قدرتي على إيلاجها في وجود سناء، اتفقت معها على أن نلتقي وحدنا. كنت أشعر بالخوف من أنها ربما سوف تقول لسناء، لكنها تقبلت الأمر ببساطة، وأخبرتني بالموعد الذي ستحضر فيه إلى شقتي.

حين جاءت قدمت لي جانبا جديدا من ذاتها. ظلت تحكي وتحكي بلا انقطاع. عن نفسها وحياتها وأفكارها عن العالم. ولكنها في النهاية توقفت. وعادت إلى طبيعتها الحسية في لحظة. ووصلنا إلى ما كنا نصبو

إليه. أحسست بأنني لا أريد من الجنس إلا ما بلغته معها. وقلت لها ذلك. وابتسمت بمحبة.

لم تبد لي سناء يومًا أي انطباع بأنها عرفت شيئًا عن أمر علاقتي المنفردة بدليلة، واستمرت ليالي الفانتازيا. لكنها، في المرة الأخيرة، كانت تدفعني بشكل غريب ومبالغ فيه لأن أزيد من ضغطي على رقبة دليلة، التي كعادتها كانت تقاوم بضعف، كأنها لا تخشى الموت، أو أنها تجد في هذا الإحساس بالاختناق المصحوب بالعنف لذة حقيقية تفوق رغبتها في المقاومة.

لا أعرف ماذا دهاني فجأة؟ كنت كمن أصيب بمس شيطاني. أتأمل وجهها المزرق وعينيها المختنقتين بالألم، وأشعر أنني على وشك الوصول للذروة، لم أكن أفهم تماما مشاعري، وفقدت تدريجيًا إحساسي بأي شيء. أصبحت أكثر شراسة وهي تغرس أظافرها لتخدش بها ظهري، كأنها كانت تمنعني عن التمادي فيما أفعل. لكني فقدت الإحساس بأي شيء إلا من ضرورة مواصلة الضغط على رقبتها، فيما أولجها حتى أدفع بما في حقوي خارجًا، أحسست أنني انعزلت عمًا حولي؛ لا أرى سوى عينيها اللتين تفيضان بدموع اللذة، فيما هما ترقرقان في بؤبؤي عيني، ولا أسمع سوى صوت صراخها المبحوح من فرط ضغطي على رقبتها، وكان في هذا ما يدفعني للمزيد من العنف في المآيرة، والإمساك برقبتها وضغطها أكثر وأكثر. ثم غشاني شعور غريب أحسست معه أنني أفقد إدراكي بما يحدث حولي، كأنني أكاد أفقد وعيي، لكني رغم ذلك كنت

أشعر برغبتي وهي تصل لذروتها، وحين انتهيت لاهثًا ومتعرقًا بشكل جعلني أشعر بابتلال جسدي العاري، حتى فوجئت بها لا تتحرك، ألقيت نفسي بجوارها ونظرت إليها، لكنني وجدتها لا تزال مفتوحة العينين، مزرقّة الوجه بشكل أصابني بالارتياع، بينما شقت صرخة مروّعة صمت المكان، وأعقبها صوت سناء بجواري تنتحب : "عملت إيه يا مجنون إنت؟ قتلتها".

هذا الصوت المجنون، المذعور، الشبق، المنتحب، الصارخ، المرتعش، المستنكر، المخيف حد الارتياع؛ لا يزال يتردد في سمعي الآن، علامة فارقة بين الخيال والواقع. بين حياتي قبل أن أعرف سناء وحياتي بعد هذه اللحظة. صوت الإدانة، والعدل؟ الصوت الذي لا يفارق وعيي. والذي لم يفلح في توجيه شكوك المحققين لما أكده محام عن خلل عقلي أصابني أخيرًا، الصوت الذي يطاردني بإلحاح كأنه شبحُ سناء، أو بالأحرى شبح القتيلة، شبح السمراء الجميلة، شبح الشهوة القاتلة، وشبح جنوني. الصوت لا يزال يطاردني وبإلحاح مريض، وقاتل، إلى هنا، يوما بعد آخر، وليلة تلو الأخرى، في هذه الزنزانة المعتمة الخانقة الضيقة، وكلما اقتربت أيامي الأخيرة.

الغابة السوداء

"يتدفق بعيدًا/ ناظرًا صوب حياته/
مثل حريق/ شبّ فجأة في نزهة/
وينحدر ظله/ في قرية مجهولة".

وديع سعادة

أعرف أن هذه الغابة ليست موحشة، على الرغم من أني لم أزرها من قبل. ولو كان معي أحد لظن بي الجنون. ربما أنا كذلك نوعًا ما. وإلا فما معنى أن أقطع كل هذه المسافات التي تتجاوز آلاف الأميال كي أصل إلى غابة نائية، تعلوها أطلال قلعة صغيرة مهدمة، ممسكًا بلحاء شجرة أرسلت لي بشكل غامض.

سألت نفسي ممسكًا بقطعة الخشب الصغيرة في يدي، بينما أعدل بيدي الأخرى من وضع وشاح برتقالي لأحكم التفافه حول رقبتي. ماذا تريد

مني هذه الشجرة؟ بالأحرى، ماذا تريد مني صاحبة الرسائل الغامضة التي أوصلتني إلى هنا بعد عام من الدردشات الإلكترونية، تحدثنا خلالها في كل شيء يمكن أن يخطر أو لا يخطر على بال أي أحد؟

كان عليَّ أن أتعرف على شجرة بعينها يتطابق لحاؤها مع القطعة الخشبية التي أمسك بها في يدي! ضحكت حين تصورت أنني تعرضت لأكبر مقلب يمكن أن يتعرض إليه شخص في هذا العالم.

فبعد عام كامل من المحادثات مع إنسانة لا أعرف حتى ملامحها، تقودني إلى هذه الغابة، بحيث أصل لشجرة بعينها منها يبدأ الطريق إلى قلعة أثرية، ثم؟ لا أعرف بالضبط. فلم يكن هذا في النهاية موعدًا غراميًا. سألتقي الفتاة أخيرًا، نعم. لكنها أيضًا لن تكون بمفردها.

"ماذا؟ من سيكون معك".

"صديق".

"ولماذا ألتقيكِ مع صديق؟".

"لأن الحياة بها الكثير من التجارب التي تستحق أن نجربها".

"ليكن، فلم تعد لديَّ الرغبة في الاستمرار في هذا الحوار الذي تصرين فيه على أن تبدين غامضة".

"سأنتظرك إذن؟".

"بالتأكيد".

كان عليَّ الآن أن أجد الشجرة. لكن أي شجرة؟ أمامي سلاسل من الأشجار تختلط أوراقها وفروعها بحيث تشكل سقفًا طبيعيًا عاليًا من الأخضر الجميل بدرجاته. تتخلله أصوات حفيف أوراق الشجر بكائنات وطيور لا تُرى، وزقزقات وتغريدات لا أعرف لها مصدرا.

الأرض الرطبة التي تختلط تربتها البُنية القاتمة بأوراق أشجار متناثرة في كل مكان، تبدو كمدق ثعباني ترسم لي الطريق الذي ينبغي لي أن أسير فيه.

أصعد المدق حتى ربوة عالية يمكن منها النظر إلى الأسفل: مدينة ريفية صغيرة هادئة لا تسير فيها سيارات. تتراص فيها مجموعة من المساكن الريفية البيضاء الأنيقة؛ تعتمر كل منها قبعة مخروطية قرميدية، وتحاط بمساحات شاسعة من سهول خضراء تمنح المكان ألقًا مبهرًا، وجمالًا يبهر الأنفاس.

توقفتُ أتلفَّت حولي، أستدعي بذاكرتي المشوَّشة المنهكة ذكريات رحلتي الأولى إلى غابة أخرى شبيهة، في بلد آخر، في نهار ساطع وبارد، متسكعًا مع زميل من أهل المدينة؛ نتحدث لغة وسيطة، عن الشعر والأدب وعن الحياة كما يعرفها كل منا. تساورني حياله شكوك بأنه "هومو"، بينما لا تصدر منه أية سلوكيات تشي بذلك. كانت شكوكي بلا إجابات، لكن لها شواهد. فهو الوحيد الذي التقيته هنا و لم يصطحب صديقة في أي مكان، و لم يكن متزوجًا، و لم يحدثني عن أي امرأة بشكل يشي بإعجابه بالنساء، ثم إنه يثقب أذنًا من أذنيه بقرط فضي صغير تتلألأ منه الماسة تكاد لا تُرى من فرط دقة حجمها.

المشكلة الوحيدة التي كانت تلح عليَّ باستمرار، شعوري أنه يكن لي نوعًا من الضغينة، تكاد لا تُرى مثل قرطه الماسي، لكنها تهب على روحي وأشعر برياحها الغادرة، ولا أعرف لها سببًا. نعم كانت ضغينته تجاهي، مثل ظني في هويته الجنسية، بلا شواهد، فهو يبتسم لي باستمرار، ويبدو دمثًا، يحرص على إظهار جانب روحاني كاثوليكي تقليدي غريب في دولة علمانية كهذه التي نمرح بين أحد مروجها، وكنت بدوري أتعامل معه بدماثة، لكن إحساسًا غامضًا كان يدفعني للتعامل معه بتحفظ في الوقت ذاته، ولعل تحفظي ذاك تجاهه هو ما كان يجعلنا ندور في دائرة الشك المتبادل تلك. أو لعلها انعكاسات الكيمياء ولا تآلف الأرواح. أما تحفظي تجاهه فربما كان مصدره هذا الحس الاستعراضي الأنوْي الذي يحيط به كظله.

شعرت بالإرهاق فجأة. كان الوقت يتجاوز الظهيرة، وفي الهواء لمسة برودة منعشة. جلستُ على الأرض الترابية أعلى الرَّبْوة، التي تبدو كسفح جبل يمتد إلى المدينة في الأسفل. التقطت علبة سجائري وأشعلت سيجارة وكتمت دخان النَّفس الأول في صدري منتشيًا.

سمعت صوت صداح جميل فالتفتُّ حولي أبحث عن الطائر الذي يطلق هذا النغم الفطري الفاتن، وإلى يساري، على مرمى البصر، تكشّفت لي ملامح غائمة من بين تلافيف الأشجار ظلال أطلال القلعة فابتسمت. هذا هو ما أبحث عنه. عليَّ أن أذهب إلى القلعة، ومن هناك ربما تهديني ذاكرتي الضالة إلى شواهد ما، أو أثر أو علامة، تمكنني من الوصول إلى تلك الشجرة.

أبتسم لنفسي وتتحول ابتسامتي لضحكة صفيقة وساخرة أرددها بيني وبين نفسي، كلما ضبطتها في موقف يعبر عن جنوني أو غرابة أطواري. أي شجرة أيها التافه التي أتيت لتبحث عنها هنا في هذا البرد القارس؟

عدت بظهري للخلف لكي أقف. تذكرت للحظة في الزمن الغابر إمكانية نهوضي من الأرض من دون أن أستند على كفي معتمدا على ساقيَّ فقط، مطمئنا لنحافتي المبالغ فيها. أما الآن فقد بدا لي الأمر بالغ الصعوبة. عدتُ بظهري إلى الخلف، لكني بدلًا من محاولة النهوض، ألقيت بظهري مستلقيًا على الأرض لأجد صفحة السماء الساطعة بلون سماوي صاف جميل، استعدت ليالي قضيتها في الليل أتطلع إلى النجوم لساعات بلا كلل. أتأملها وأبحث فيها عن إجابات لأسئلة بلا إجابة، عصيّة، لكنها كافية لإطلاق خيالي الجامح بكل الإجابات التي لا تقال جهرًا. ولاختلاق قصص عن كائنات أخرى تعيش بعيدًا في الفضاء، وبعضها يتكئ على ظهره يرقبني بدوره من على البعد.

نهضت متجهًا صوب القلعة، مصحوبا بظلي، وبالزقزقات والتغريدات، وحفيف أوراق الشجر، ورفرفات أجنحة طيور لا تُرى، وصوت وقع خطواتي التي تخشخش حينًا، وتختفي أحيانا أخرى بحيث أبدو مثل أي شبح أخطو بلا صوت، وفقا لمدى انتشار أوراق الأشجار الجافة المتساقطة من الأشجار. ولكني هدَّأت من سرعة خطواتي عندما لاح لي الجدار البني القاتم المكون من حجيرات صغيرة متماثلة عتيقة، الذي لم يعد باقيًا منه سوى ثلاثة أسوار يتوسطه برج مهجور مبني بنفس الحجارة.

اكتشفت أنه كان عليَّ أن أغتنم فرصة وجودي أعلى تلك الربوة، التي هبطتُ منها لتوي لكي أكتشف المكان بشكل جيد. أمامي مدقٌ صغير يبدو أنه يقود إلى تلك القلعة. لكن لحاء الشجرة في يدي يقول بأن هناك مسارًا آخر يبدأ من تلك الشجرة.

مرَّ خاطر على ذهني بأن أعود من حيث أتيت، إلى المدينة الأوربية الصغيرة التي أعيش فيها مرتاح البال، وأعود لحياتي وأتناسى هذه الفتاة وهذه القصة الغريبة تماما، لكنني بسرعة أبعدت هذا الخاطر من ذهني، فلم يكن لدي احتمال أنني بعد أن أعددت نفسي لمدة أسبوع لأنفض الكسل وأستقل الحافلة عبر هذا الطريق الطويل من العاصمة إلى هذه المدينة الريفية الجميلة، لكي أعود لمجرد الإحساس بالضجر.

قلت إنني سوف أستغل الرحلة، أنا هنا. سأكتشف المنطقة جيدًا، وسوف أزور القلعة وأتعرف على جزء من تاريخ البلقان، وأتأمل الطبيعة وأتنشق الأكسجين ما طاب لرئتي. ثم أعود إلى ذلك المقهى الذي يقدم القهوة البوسنية مع سيجارة محلية، وقطعة ملبن صغيرة، وأتناول وجبة خفيفة لا تزيد على قطعة صغيرة من جبن الماعز الجبلي والخبز البوسني الساخن، وأبيت الليلة في غرفة بيت قديم من بيوت تلك القرية الصغيرة، ثم أعود غدا.

نهضت بعزيمة مختلفة للتجول في الغابة، حيث كنت مغطى بالأشجار من حولي، أتحرك بين الشجيرات الصغيرة وألمح اقتراب سور القلعة إلى يميني، وكلما حثثت خطاي موغلا كلما أدركت مدى امتداد سور القلعة.

والآن فقط أدركت المقصود. فبانتهاء الضلع الموازي لي من أسوار القلعة، اكتشفت أن الضلع الذي يمثل خلفيتها تتراص على امتداده مجموعة من الأشجار الضخمة. عددتها واكتشفت أنها سبع شجرات. وبدأ الطريق الذي أسير فيه يعلو تدريجيا معلنا عن بداية تل، تبدو القلعة الآن وقد بنيت في أحضانه، وبدا أن من بناها اهتم بحماية الجزء الخلفي لها المطل على التل بأكثر من برج مراقبة وأكثر من بوابة.

وبعد جولات وصولات بين تلافيف الشجيرات والأشجار، ومقارنة قطعة الشجرة في يدي مع الأشجار، وسوى ذلك وصلت إلى المكان المقصود. كانت الشجرة تواجه البوابة التي تتوسط البوابتين الأخريين.

دلفت إلى البوابة، ثم جلست إلى سور صغير يبدأ بعد البوابة مباشرة لاهثًا ومنهكا. انتظرت حتى هدأت. دخنت سيجارة وأنا لا أعرف ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله. يبدو أنني وصلت للمكان الصحيح. لكن وماذا بعد؟

تأملتُ المكان من حولي ووجدت مدقًا من الأحجار المصقولة بين سورين، يقود لطريق علوية تصل إلى موقع للمراقبة في أعلى القلعة، أو شيئًا من هذا القبيل. وبدأت أشعر بالملل. لولا أن السماء كانت قد امتلأت بغيوم أعاقت سطوع الشمس، ولفحتني نسمات باردة. فقررت الصعود في تلك الطريق.

قبل أن أصل إلى القمة بقليل، سمعت أصواتًا مبهمة لم أستطع التكهن بها. تلفّت حولي واكتشفتُ أن هذا الطريق لا يجتذب أحدا غيري. لا

أحد حولي. بينما كنت أرى روادًا كُثُرًا يتحركون وهم يتأملون المبنى العتيق بعيدًا في صحن القلعة. عاودت المشي بعد توقف الصوت.

لكن بعد دقيقة أخرى توقفت لأنني لم أعد متأكدًا مما أسمعه. صوتُ همهمات بشرية غائمة كانت كفيلة بأن توقع الهلع في قلبي، وتستعيد تراثًا كاملًا من الخرافات التي امتلأت به أذهاننا في الطفولة، وبنت لها أعشاشًا في أركان عقولنا ووعينا عن الأشباح والعفاريت، والموتى العائدين من القبور أحياء. لكنني تماسكت.

أصخت السمع محاولًا كتم أنفاسي اللاهثة، فبدت لي الأصوات كأنها تخص فتاة لم أدرك إذا ما كانت تبكي، أم تهمهم لنفسها بشيء ما. ووقعتْ على رأسي بلطة شقت مشاعري إلى شقين، سرعان ما كنت أحاول أن أستردهما لأستعيد السيطرة على ذاتي. فضولٌ قاتل لمعرفة ما يحدث خلف الجدار، واكتشاف أصل الكائن المختفي خلفه، ورغبة عميقة في الركض بأقصى سرعة إلى خارج هذه القلعة ودون إبطاء.

ووجدت نفسي تهتف لي: "هل عرفت الآن لماذا استدعتك الشجرة؟". فابتسمت، لكنني لم أطمئن لأي شيء. بدت العبارة مجرد قول موازٍ للمفاجأة التي أعاينها الآن وهنا. لكنني تخيلت للحظة وجودي في غرفة الفندق؛ مضطجعًا على الفراش البسيط، الأنيق أؤنب نفسي على هروبٍ افتراضي من الغابة، من دون معرفة سر ما يحدث خلف جدار القلعة. تمثّلت الشعور الرهيب بالانحطاط والدونية الذي يمكن أن يساورني في لحظة هروب كتلك، فارتعشت روحي كأنني كنت مغيبًا عاد إلى الحياة فجأة.

وهكذا وبلا تردد، توجهت بثبات صوبَ الجزء المحطَّم من الجدار العابر لزمن آخر موغل في القدم، والذي يبدو كبوّابة وحيدة للدخول إلى حرم القلعة. اختبأت خلف الجدار مانحًا نفسي الفرصة كي أطل برأسي لأتكشَّف ما يجري.

فور أن مددت رأسي التقت عيناي بعينين كانتا تحدقان في عيني بثبات. عينين زرقاوين ناعستين شهوانيتين. كانت صاحبتهما فتاة عشرينية، عارية تمامًا، تعتلي رجلًا لا يظهر منه سوى ساقين نحيلتين مشعرتين، ممدَّتين في اتجاهي، توليه ظهرها بينما تصعد وتهبط كاشفة عن جسد بض ونهدين يتراقصان سقوطًا وارتفاعًا مع حركتها، ويرافقهما شعرها الأشقر متوسط الطول.

كانت تنظر باتجاهي، لكن لم يرف لها جفن، كأنها لا تراني. كانت نظرة عينيها شهوانية، بقدر ما تبدو زائغة، تعبر عن لذتها المشتبكة بما يشبه ألمًا مازوخيًا.

أخفيت دهشتي ولكني تراجعت مبهورًا بالمشهد. أسندت ظهري على الجدار. واستعدت ملامحها التي لم تتواءم مع الصورة التي تخيلتها لها. فجسدها ممتلئ، ووجهها المنتفخ قليلاً يمرح فيه النَّمَش وحَب الشباب، كما لاحت لي عينيها ضيقتين. وسمعت صراخها الشهواني الآن حادًّا صاخبًا، كأنها تتعمَّد أن تُسْمِعْني صوت غلمتها.

ابتسمتُ، ولكني لم أعرف ما يجب عليّ أن أفعل، فأشعلتُ سيجارة، بينما توالى صوتها الذي ارتفع بقوة مبالغ فيها. بدا الصراخ لحوحًا كأنه

نداء حارق لكي أعود لمراقبتها، كأن وجودي قد أثار فانتازيا الاستعراض لديها وأشعل شبقها، فاستعدت هدوئي وعدت إلى المكان.

وفور أن دخلت في هذه المرة وجدتها، لا تزال في نفس الوضع، تستند بإحدى ذراعيها على ساق صديقها، فيما تشير لي بالأخرى أن أقترب، من دون أن تتوقف عما تفعله.

***

مرَّ وقت قبل أن يستعيدا هدوءهما. وبعدها فوجئت بقدمين صغيرتين مصبوغة أناملها بلون أحمر قاتم، ونظرت إلى الساقين العاريتين، ثم رفعت عيني لأجد الفتاة عارية إلا من شال برتقالي اللون لفّت به رقبتها، وتركت ما تبقّى منه ينسدل على جزء من صدرها. جلست وأبدت امتنانها لحضوري مؤكدة أنها كانت على يقين من حضوري!

تحدثتْ عن نفسها، وتحدثتُ عن ذاتي، دخنتُ فطلبت مني سيجارة، فعدت أبحث عن علبة السجائر في جيب معطفي الرمادي الداخلي وأخرجت لها سيجارة. وبين سُحب الدخان انفتحت ثغرات صغيرة لكلماتها ولكلماتي، ثم ساد صمتٌ طويل ومربك، ولم يظهر الشاب الذي كان يضاجعها. ولكن الكلمات الحسيّة ذات النبرة الخافتة المُقالة بلكنة إنجليزية ركيكة، استطاعت، مرة أخرى، أن تفتح ثغرات جديدة في ركام الصمت، عن الفانتازيا، والرغبات المدفونة التي تثير الشهوة، وعادة ما تبقى حبيسة الصدور.

جاء صوتها هامسًا مبحوحًا، ببحّةٍ مثيرة، وشاردًا وهي تتكلم عن الروح والجسد. عن روح تعيش داخلَ جسد ونسير بهما دون أن نعرف شيئا عنهما!

قالت: "أحيانا أشعر أنني أمثل دورا في رواية لا تخصني. أكاد لا أعرف نفسي". ثم ساد الصمت مرة أخرى، وتحولت الشمس عن موقعها في كبد السماء، وأصبحت أكثر رحمة. وتأملت جسد الفتاة الربيل. كان ظهرها مفروشًا ببقع صغيرة من النمش. وبين الفينة والأخرى كانت تتكئ بذراعها على الأرض الحجرية لتختلس نظرة على صديقها خلف الجدار وتعود بابتسامة غامضة.

***

وجدتُ نفسي، بغتةً، في مشهدٍ غريب، بين امرأة ورجل لا أعرف أيًا منهما. هل هو زوجها؟ أم عشيقٌ عابر؟ كأنني اعتليت خشبة مسرح لألعب دورًا ارتجاليا لم يخبرني عن طبيعته أحد. ويبدو أنها كانت تقرأ ما يدور برأسي. ابتسمتْ وأشارت إلى كل منا ونطقت باسمه. ووجدتني أضحك بهستيرية، وأنا أنحّي عيني بعيدا عن عيني الشاب الذي كان يرمقني بنظرة لا تفسير لها عندي إلا البلاهة. كنت أحاول بها أن أستعيد توازني النفسي لمواجهة الموقف العجيب.

أعترف بأن الأمر بدا مثيرًا منذ مدّت لي يدها وهي في أوج شهوتها، وعندما اقتربتُ منها، وانحنيت وأودعت قبلة على جبينها. فنهضتْ

بجذعها قليلا وبادلتني قبلة سريعة رطبة، ودون أن تمنحني أي فرصة أخرى فتحت "سوستة" البنطلون وغابت في شهوة عارمة. كنا ننتحي خلف جدار غرفة تتوسط باحة هذه القمة لا يعلونا سوى السماء. وعلى الأرض كانا قد فرشا مرتبة إسفنجية صغيرة بالكاد تكفي ليجلس شخص فوقها. كانت قد اعتدلت لتضع ركبتيها عليها متيحة لصديقها، أن يلجها من الخلف، والذي لم تبد عليه أية ملامح لانزعاج أو أي شيء، كأنه يؤدي دورًا تمثيليًا في فيلم، ويستجيب لما يطلبه منه المخرج بأريحية. وأدركت حينها أن ما يحدث هو سيناريو مخطط سلفًا.

استمتعتُ باللقطة، أو بالأحرى بهذا السيناريو، وبهذه الفانتازيا التي لعبت فيها دورًا لم أتخيل أنني يمكن أن ألعبه يومًا. اعتبرت نفسي شاهدًا للحظة حب حميمية بين رجل وامرأة لا أعرف عنهما أي شيء سوى أنهما تركا العالم للناس وجاءا، مثلي، إلى هذه البقعة النائية ليمارسا الحب. سمعت صوتها يتردد في أذني، بالأحرى ركّبت صوتها الذي عرفته الآن فقط، بنبرته الرنانة على مقولات كانت كتبتها لي في رسائلها سابقا:

"الحياة قصيرة جدا، وكل شيء فيها يحتاج إلى أعمار تفوق على أعمارنا المقدرة".

"هذا هو الرجل الوحيد الذي استطعت أن أخبره عن فانتازياي الجنسية وتقبلها".

"أظنه يحبني بشكل مطلق متجاوز كل المشاعر البغيضة الخانقة التي يعرفها الناس كذبا باسم الحب".

"لا تقلق. هذه تجربة استثنائية لكنك لن تنساها ما حييت".

"لا لن تعرف اسمي الحقيقي، ولن أعرف اسمك الحقيقي أيضًا. وسيظل اسمك الكاذب على الإنترنت واسمي المستعار عنوان هوية واحدة من هويتنا سيظل كل منا يذكرها عن الآخر وللأبد".

"في عينيك ثمة شيء مثير، وكلامك عن أنك تشتهيني يثير رغبتي بشكل غريب".

ساورني شعور غريب في تلك اللحظة. أنني جزء من المشهد، ولكني منفصل عنه في نفس الوقت. كأني أجلس في صندوق زجاجي شفاف أرى العالم وأتمثله، لكن على مسافة ما. كنتُ سعيدًا باستخدام هذه المرأة، وصديقها، لي في علاقتهما الفانتازية، التي أرادا بها أن يحققا فانتازييهما الاستعراضية بين جدار القلعة وأشجار الغابة القريبة، وتحت السماء العارية وبوجودي شاهدًا على فعل الحب بينهما، دون أن يعرفاني، وربما دون أن يضطرا ليرياني مرة أخرى. كنت سعيدًا بإحساسها المتصاعد بالنشوة منذ رأتني، وبابتسامتها التي جمعت ملامح النشوة والشبق مع شيء من الامتنان. أحببت ابتسامتها، وبها تشجعت على قبول دخولي هذا المشهد بلا كثير من التوتر.

عندما حاولت اجترار مشاعري لاحقًا، بعد أيام عديدة، اكتشفت أن حاسة البصر كانت مستثارة أكثر من حواس كثيرة أخرى. لم تكن ذاكرتي الجسدية تكاد تتذكر ملمس بشرة الفتاة، بينما كانت تتذكر كل تعبيرات

وجهها، خصوصا تلك الابتسامة المنتشية التي تبرق خلسة من بين تعبيرات شبقها وشهوتها بين آن وآخر.

بدأنا حوارًا طويلًا بعدما انتهينا، كأننا نعرف بعضنا بعضًا منذ زمن، لكن في نفس الوقت كنا نسأل عن أمور لا يسألها سوى أشخاص تعرفوا إلى بعضهم للتو. وحين بدأنا في تناول الطعام الذي بدا أنها أعدته بنفسها، كنا نضحك من المفارقة. تحدثنا في اشياء كثيرة، من السياسة إلى الثقافة التي ينتمي إليها كل واحد منا. فقط تجنبنا الحديث فيما حدث بيننا قبل قليل بشهوة عارمة وهياج لم أختبرهما من قبل، كأنه حدث عادي يومي وعابر، لكني حين كنت أبادلهما الحديث كنت أستعيد لقطات من ممارستنا الحميمة، فتغمرني السعادة مشوبة بشيء من الدهشة.

حين ودّعتهما بعد ساعات من حال استرخاء جمعنا معا عراة نستكين على الأرض صامتين، واستعدت المشاهد الثلاثية الحميمة، بينما أهبط من مدخل القلعة متأملا الشعاع الأخير للشمس الغاربة في الأفق، برقت في ذهني صورة سرعان ما تحولت إلى صوت. جملة شعرية أحفظها عن ظهر قلب لشاعر جميل. ماذا يقول؟

"يتدفّق بعيدًا/ ناظرًا صوب حياته مثل حريق
شبَّ فجأةً في نزهة،
وينحدر ظلُّه/ يوقظ بضعَ نسائم على التلّة
وينحدر/ في قرية مجهولة

قرية مجهولة تمامًا

لا يشعر بها سكّانها حتى باللمس".

وألقيت بلحاء الشجرة جانبا، متبسّما، في طريق عودتي إلى القرية الصموت.

عفاريت العولمة

"أريد أن أتعرّى أمام عينيك المغردتين| أريد أن تراني أصرخ لذةً أن تتلوّى أطرافي تحت وزنٍ جدّ ثقيل| أن تدفعك إلى أعمال كافرة"

جويس منصور

لم يخطر على بالي إطلاقًا أن يهطل المطر بهذه الغزارة. انفتحت السماء على اتساعها. وأمامي كانت جموع البشر يفرون بحثًا عما يسترهم ويحميهم من قذائف السماء المائية. وشيش المياه يدوّي إثر ارتطام قذائفه بالأرض والشجر والبنايات والسيارات المارة والمتوقفة المتكدسة.

وجدت بناية قريبة فهرعت أحتمي بها، ووقفت قريبًا من مدخلها. ورغم المطر لم يكن الجو باردًا بل دافئ رطب. إحساسي بالبلل أشعرني بالشلل. لا أستطيع أن أفكر في أي شيء. وجدت امرأة تقف على بعد

خطوات. ملامحها آسيوية، منمقة، شعرها من بعيد يبدو أشقر، ترتدي معطفا منحها لمسة أرستقراطية مدهشة. تمسك بمظلة ويبدو أنها نجت بها، بحيث وقفت في هذا المكان كأنها تقف في جو صحو. تتلفّت حولها، ثم تحدق في اتجاهي. هل كانت تلك ابتسامة؟ خلعتُ نظارتي و لم أتيقن مما إذا كانت هذه ابتسامة حقيقية أم خداع نظري المعطوب؟ لمحتها تفتح معطفها لأرى جسدها، عاريًا تمامًا، تحت المعطف. تركتني أتأمل جسدها لثوان ثم أغلقت المعطف وأحكمت غلقه. مر "جيبي"(*) Geepi، مكدس بالبشر، ومن السيارة العتيقة لوّح لها شاب وسيم، تجاهلته ثم نظرت إليَّ وابتسمت مرة أخرى.

انخطف قلبي، واستجمعتُ، بالمطر والصخب، شجاعتي، وتوجهت صوبها ركضًا، مثل عشرات الفارين من هجوم السماء إلى أمان السقيفة الإسمنتية التي تقف تحتها. ابتسمتُ لها ابتسامة متواطئة عبّرتُ بها عن المشترك الإنساني الذي يجمعنا معًا ككائنين اتفق لهما أن يشهدا معًا جانبًا من غضب، أو ربما مِنَح، الطبيعة، فردت الابتسامة بالتواطؤ ذاته. حيَّيتها:

– "هالو".

ابتسمت لي وهزّت رأسها.

– هذه المرة الأولى التي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف.

(*) "جيبي" سيارة لنقل الركاب مميزة تبدو كحافلة جيب صغيرة من طراز Geep، من مخلفات الحرب الأمريكية اليابانية في الفلبين.

ابتسمت لي وقالت:

- أهيَ المرة الأولى التي تأتي فيها إلى مانيلا؟

- بالضبط. هذا هو.

ضحكت ثم قالت:

- دائمًا لا يجد زوّار مانيلا الدليل الصحيح الذي يخبرهم بما يجب أن يفعلوه أو يتجنبوه.

تأملتُ وجهها. عيناها سوداوان كالحتان، ضيقتان، عظمتا الوجنتين بارزتان قليلًا، وشعرها الثقيل الناعم القصير مصبوغ بلون كستنائي داكن، بطريقة عصرية. بصراحة لم يكن متماشيا مع المعطف الكلاسيكي الأرستقراطي.

رأيتها تتأملني للحظة ويبدو أنها فهمت ملاحظتي فقالت:

- كنت عند صديق من أصدقائي وباغتتنا أمه، لم أتمكن من ارتداء ملابسي، فاكتفيت بالمعطف، ونزلت من غرفة خلفية. أتمنى أن يكون نجح في إخفاء ثيابي.

وسّعت ابتسامتي مبديا ملامح عدم تصديقي لها. ثم قلت:

- ولو صادفتُ الدليل الصحيح فبماذا كان سينصحني؟

ابتسمت وقالت: ها نحن ذا. ثم ضحكت.

نظرت لها بابتسامة مستفسرة بينما لاحظت أنها أصغر عمرًا بكثير مما كنت أظن.

قالت: أولا إن الطريقة المثلى لمواجهة المطر أن تتخلص من ثيابك. العري تحت مطر مانيلا هو الطريقة المثلى لمواجهته والاستمتاع به.

- مثلك؟

- بالضبط.

- وثانيا؟

- ألاّ تستسلم للقاء فلبينية تقف تحت المطر مساء بمفردها.

نظرت إليها مفاجأً ومندهشًا، وللحظة شعرت بالخوف، لكنها أخرجتني من ارتباكي وضحكت قائلة:

- النصيحة الثالثة ألا تصدقها إذا حاولت أن تخيفك.

حلّ على قلبي إحساس يائس كمن يجد نفسه في زنزانة مغلقة أو غرفة مظلمة. فقلت لها:

- ألا يوجد مكان آخر يمكن أن نستكمل فيه كلامنا؟

- أنت عربي؟

- أليس واضحا؟

- بلى، لكن لأتأكد.

- تأكدي.

- توقعت ذلك. المهم. انظر هناك.

كانت تشير إلى مبنى صغير من طابقين على بعد عدة أمتار.

- يوجد مقهى هناك يقدم القهوة التركية والشيشة. هل تود أن تصحبني؟

- أريد أي شيء باستثناء الوقوف هنا في هذا السيل الجارف.

- أوكي. سوف نتجه إلى هذا المحل القريب أولا، سنشتري منه مظلّة أخرى لك، وبعدها نركض إلى المقهى. هيا اتبعني.

وبدأت تركض كالمجانين فجأة وتضحك.

يلعن أبو جنانك. و لم يكن لديَّ ما أفعله سوى أن أعدو خلفها مثل كلب يتبع عظمته الطائرة في الهواء.

في المقهى جلسنا إلى منضدة صغيرة تطل على الشارع. قلت لها ضاحكا:

- إما أنك جريئة جدًا، أو أن مجتمعك متسامح؟

نظرت لي بابتسامة لم تستطع أن تكبح بها فضولها لفهم السؤال. فقلت لها: "ليس لديّ شك أن عشرات غيري شاهدوك اليوم عارية تماما".

ضحكت وعادت للخلف لتفسح المجال لقهقهاتها الصغيرة الناعمة، ضاقت لها عيناها السوادوان، ثم اقتربت مني وسددت لي نظرة شهوانية

وقالت بصوت خافت : "أنا أحب الاستعراض. هذا يثيرني جنسيًا. كان الأحرى بي أن أعمل عارضة إستربتيز".

"حقا؟".

"لا يمكنك أن تتخيل".

ابتسمتُ وأنا أتأملها دون أن أنطق بشيء، بينما رسمتْ هي تعبيرًا فضوليًا يكشف عن ترقبها لما سأقول.

"إذا نمنا معًا في غرفة مغلقة فلن يكون لهذا أي معنى بالنسبة لكِ إذن؟".

غيرت ملامحها تمامًا حتى بدت جادة ووقورًا ثم قالت: "إيييه.. انتبه لكلامك. أنت تتحدث عن النوم مع امرأة تعرّفت إليها قبل خمس دقائق فقط. هذا خطيييير".

وقبل أن أرد عليها بشيء قرقرت بضحة مباغتة ثم أردفت:

"أنا لا أمارس الحب إلا في الشوارع أو الشرفات".

انفجرتُ ضاحكًا من الطريقة الجادة التي تقمصتها، وأنا أردد لنفسي: بنت الحرام دي مش ممكن. لطيفة جدا!

كنا نجلس في مقهى له طابع عربي يحتل طابقًا علويًا واسعًا من مبنى صغير في حي "ماكاتي" في قلب مانيلا. تنتشر الملامح العربية ودخان الشيشة حولنا. حضرتْ نادلة قصيرة القامة، بيضاء البشرة على عكس

الشائع، حيث يسود اللون الحنطي هنا كلون مميز لبشرة الفتيات والرجال. شعرها الأسود الثقيل الناعم القصير يكمل شخصيتها الخاصة التي تبدو مزيجا بين الفلبينية التقليدية وست البيت العربية؛ خصوصًا وهي ترتدي عباءة طويلة مقلمة بخطوط عريضة ملونة بالبرتقالي والبني والأحمر والذهبي، وسألتنا عما نرغب بابتسامة.

بعد أن انصرفتْ النادلة قلت للفتاة مباشرة ما اسمك؟ فقالت: ريزال.

قلت: ريزال؟ أليس هذا اسم بطلكم القومي وكاتبكم الكبير خوزيه ريزال؟

ابتسمت بإعجاب وقالت: أنت تعرف شيئا مختلفا عن الفلبين! هل تعيش هنا من فترة طويلة؟

"نعم لكني لم يسبق لي أن نمت مع أحد هنا لا في الشارع أو الشرفة".

ضحكت ثم قالت : "يمكنني أن أتنازل وأنام معك لو شئت، على سطح أي بناية في مانيلا. لو كان السطح عاليًا جدًا سأكتفي بمراقبة النجوم لنا ونحن نمارس الحب".

قلت: "هذه صورة شعرية"، فابتسمتْ بخجل، و لم تقل شيئًا.

فقلت: "بما أنك لا تعملين راقصة إستربتيز فماذا تفعلين؟".

قالت: أووف. مارست مهنًا عديدة. المساج. نادلة. وعاملة في

محلات لبيع الملابس. آه وكاشيرة في سوبر ماركت صغير، لكني لا أريد هذا كله".

"ماذا تريدين إذن؟".

"الرقص في مسرح مع فرقة فنون شعبية. أو أن أعمل في مكتبة".

"مكتبة؟ رائع، تحبين الثقافة؟".

هزت رأسها بارتباك وقالت: "لا تفرط في توقعاتك عني. لا أنتمي للنخبة المثقفة هنا. أنا فتاة عادية. أريد أن أعيش حرة وسعيدة".

***

اتفقنا أن تمر عليّ ليلًا في غرفتي، وودعتها في طريقي إلى الفندق.

***

نظرت إلى الساعة فوجدتها تجاوزت الثانية صباحًا. كنت نائمًا بملابسي، على ظهري، وشاشة التليفزيون أمامي مفتوحة. فتاة عارية تمسك نهديها وتتطلع إليّ، عبر شاشة التلفاز، بشبق تمثيلي. تمسك نهديها الكبيرين وترفع أحدهما إلى الأعلى قليلًا لتداعب حلمتها بلسانها. نهضتُ بتثاقل، والتفتُ إلى سجائري بجواري، التقطت سيجارة ثم أشعلتها ونفثت الدخان.

تطلعت إلى السقف. فكرت بأن الفتاة لن تأتي، ربما يكون موعدها مع رجل أرادها أن تقضي الليلة معه. شعرت بالجوع. فنهضت باتجاه الثلاجة الصغيرة المجاورة لباب الغرفة. فتحتها فانفلت ضوء ساطع من داخلها ليستلقي بوهجه على الموكيت البني الأنيق. تناولت قطعة شيكولاتة وزجاجة مياه باردة وعدت للفراش. تناولت الشيكولاتة وتجرعت المياه بنهم وعطش.

دق جرس الهاتف فالتفت إليه وابتسمت. رفعت السماعة فجاءني صوت موظفة الاستقبال: "هل تنتظر ضيفة الآن يا سيدي"؟ لم أرتح لصيغة السؤال، لكن ظلال الابتسامة التي لاحت لي في صوت الفتاة جعلتني أقول لها بأريحية : "نعم أنتظر ضيفة. دعيها تصعد".

بعد عدة دقائق دق جرس الباب، فنهضت وفتحت الباب مبتسما. وجدت أمامي فتاتين: إحداهما نحيفة، شعرها بني داكن، عيناها ضيقتان، تبدو بملامح وجهها الدقيقة أشبه بالكوريات، بينما الثانية سمراء مدملكة الجسد، عيناها واسعتان عسليتان مدهوشتان على نحو ما، كأنها فتاة من فتيات "جويا" قد هربت من إحدى لوحاته وجاءت إلى هنا.

نظرت إليهما بدهشة واستنكار، فوسّعت الفتاة البيضاء من ابتسامتها قائلة: "ألن تدعونا للدخول؟". نظرت إليها أدقق النظر في ملامح وجهها التي كشفت أنها في عمر صغير ربما لا تتجاوز السابعة عشر. وقلت لها بصرامة من دون أن أتخلى عن ابتسامة باردة : "لا لن أدعوكِ للدخول. هل سبق لي أن دعوتك للحضور إلى هنا؟ أعتقد أنك وصلتِ إلى الغرفة الخطأ".

ابتسمت وهي تقول: "لا لا أنا جئت من أجلك أنت. الست السيد..؟

هالني أنها تعرف اسمي، وأدركت فورا أن الفتاة ريزال، هذا إذا كان اسمها أساسًا، مجرد قوّادة؛ أرسلت لي هاتين الفتاتين بعد أن عرفت عنوان غرفتي. "غبي" هتفت لنفسي بلا صوت. ثم قلت بحسم : "تأخر الوقت وينبغي لي أن أنام الآن". وشرعتُ في إغلاق الباب. لكن الفتاة حافظت على رباطة جأشها وهي تصد الباب بذراعها وتقول : "انتظر لحظة. من فضلك يا سيدي، كيف لنا أن نعرف أنك تنتظرنا؟ وفي كل الأحوال لن تندم على قضاء الوقت معنا".

ابتسمتُ لها بسخرية قائلا : "ومن قال لك إنني أريد أن أقضي الوقت معك أو معها؟".

قرقعت أرضية الردهة الخارجية بصوت خطوات امرأة تنتعل كعبًا صلبًا، فالتفتت شبيهة فتيات تاهيتي إلى مصدر الصوت بقلق، أما الأخرى فتوقفت للحظات لكنها لم تبد أي لون من ألوان القلق أو الارتباك، بل اقتربت مني قليلًا وقالت بصوت هامس: "أرجوك دعنا ندخل ولن تندم، سنفعل لك كل ما ترغب فيه".

شعرتُ بضيقٍ شديد من إلحاحها، لكن نظرة الفتاة الأخرى الراجية جعلتني أفتح البابَ وأقول لهما : "ادخلا قبل أن أغيّر رأيي".

بعد فترة من الحديث الممل وطلبي المستمر منهما الانصراف لرغبتي في

النوم، وإلحاحهما في البقاء حتى الصباح لخطورة وجودهما في الشارع في هذا الوقت، لأن عمر كل منهما أقل من السن القانوني، امتثلت وقلت لهما أن تناما حتى الصباح، بعد أن طلبت من كلتيهما أخذ حمام دافئ، ففعلا، وبعد قليل خرجت كل منهما عارية إلا من منشفتين كبيرتين.

تسللتُ من الفراش بعد أن سمعتهما يغطان في النوم. لم تستغرق أي منهما أكثر من عشر دقائق حتى كانتا تغطان في النوم. كأنهما لم تناما ليومين سابقين.

اتجهت للأريكة الموجودة أسفل النافذة الكبيرة وتمددت عليها. كنت ناقمًا على غبائي الذي جعلني أسمح لهما بالدخول، وعلى قبولي صعودهما إلى الغرفة دون أن أتأكد من هويتهما.

لعنتُ الفتاة الشقراء ريزال، فهي السبب في كل هذا. فتاتان مراهقتان تغطّان نومًا في فراشي. لكل منهما تاريخ، حتى لو كان صغيرًا، وأحلام، ومصادر بهجة وتعاسة، لا أعرف شيئًا عنها، ولا أريد. ولا أستطيع النوم خشية أن تكونا لصتين صغيرتين، على الرغم من أنني كنت أضع نقودي وجواز سفري في خزانة الغرفة، لكنني كنت أشعر بالقلق منهما. فحتى عندما عرضت عليهما النقود بلا مقابل. أصرتا على البقاء.

لا أعرف كم مرَّ من الوقت، تقلبتُ خلاله عشرات المرات، قبل أن أسمع حفيفًا خافتًا لخطوات أقدام، وسرعان ما تبينت أنه يخص الفتاة الغريبة شبيهة فتيات تاهيتي. كانت تقترب من الأريكة بحذر. وعندما توقفت أمامي تمامًا وجدتها عارية. انحنت مقتربة مني حتى أصبح وجهها

قريبًا من وجهي وقالت هامسة:

- لماذا تنام هنا؟ هل وجودنا يضايقك إلى هذا الحد؟

- لا لا. أنا فقط معتاد على النوم بمفردي. لا أستطيع النوم بجوار أحد.

- أشعر أنك مرتاب وقلق. أرجوك ألا تخشى شيئًا. نحن مجرد فتاتين فقيرتين، وريزال أرادت أن تساعدنا بعد إلحاح ابنة خالتي عليها. في تمام السابعة سنخرج من هنا لأن عليَّ الذهاب إلى الجامعة.

نهضتُ وجلست مرتديًا شورتًا وتي شيرتًا أرتديهما للنوم عادة، فجلستْ بجواري. شعرت بجسدها دافئًا وغضًا. وضعت ذراعي حول كتفها. الإضاءة الخافتة المتوترة القادمة من جهاز التليفزيون المقابل للفراش كانت تضيء لي جسدها الحنطي الجميل. ثدياها صغيران. عندما انحنت لتقترب مني اتخذ كل منهما تكوينًا مخروطيًا صغيرًا. قربت وجهي منهما، ووضعت لساني على أقربهما، ومصصت الحلمة، طعمها حمضي قليلًا، ضمت رأسي إليها بشبق. رفعت رأسي لأتأمل وجهها فوجدتها تفتح عينيها المدهوشتين بشبق.

ثمة شيء مدهش فجّر الشهوة في جسدي، رائحة جسدها البدائي بلا عطر، وشعرها المتموج الكثيف، أو ربما صور فتيات جوجان العاريات اللائي استدعتهن ذاكرتي من حيث لا أعلم، وبينهن صورة مستوحاة من فتيات تاهيتي صوّرها فنان فوتوغرافي لا أعرفه؛ أجلسها على سور حجري تحيطه غابة من الأشجار، تجلس عارية، إلا من إزار أحمر

بورودات بيضاء كبيرة، ووردة طبيعية بيضاء تنغرس في جانب من شعرها الطويل، تكشف عن نهدين كبيرين، واقفين بلا سند، وتمسك في يدها مصباحًا يشع بالضوء.

بدت لي هذه الفتاة تجسيدًا نموذجيًا لهن جميعا، أقبلتْ عليَّ فأقبلتُ. قبّلتُها واحتضنتها. اعتليتها فاستكانت، فأتيتها من مأتاها، ثم امتطيتها فاستدارت، ألهبتُ ردفيها بضربات تسبق هصرًا وزعتُه وفقا لإيقاع صرخات مبحوحة كأنها تحاول أن تهمس بها حتى لا يفضحها صوتها.

أنصت جسدي لهاتف غامض أراد أن يحجِّر اللحظة فاستجاب له الجسد، شعرت كأني خدِّرت عضوي، وبدت لحظة الذروة بعيدة رغم احتراقي بلهيب جسد الفتاة. امتطتني فتحَوَلَتْ إلى كتلة من ظلام شهواني دافئ، كتلة من توق جسدي تشتعل حرارته من تناقض الملامح المندهشة العالقة في ذهني، وبين صبا الجسد وحيويته وإيقاعه الفتيّ. حلّت كتلة الظلام الشبقة في بدني، فيما تؤجج شهوتي اكتشافات تفاصيل الكتلة في تمرغ الجسدين، الوركين الناعمين المتماسكين، الكفل البض، الظهر مشقوقًا بعموده الفقري، ثم صارت موجة، تنقلب لتعلو ثم تهبط، فيما ريح النشوة والشهوة تتأجج وتخبو وفقا لإيقاع لا أعرف كيف تملك خبرته فتاة في مثل عمرها.

كنت في أوج شهوتي، وغيابي في جسد الفتاة السمراء، أتساءل عن تكون؟ سؤال يولده العناق الشهواني، والخيالات، واللذّة. وكانت الإجابات غامضة. كيانٌ شبحي يفيض بما تفسره الإيروسية بأنه الغرام، أو

بأنها روح مسافرة من زمن بعيد إلى جسد يعيش في الحاضر. كان أداؤها يبدو كعاشقة تخلص في حب عشيقها، لا مجرد عاهرة صغيرة تمتع رجلا لا تعرفه من أجل النقود. وأيًا كانت، قلت لنفسي إنني بوجودها الحسي الدافئ الحميم هذا أشعر بأني في حلم يروق لي أن أعيشه مطوّلًا، لكنه تحول، بغتة، بل ربما في لحظة واحدة، تشبه لحظة الإفاقة من حلم جميل، إلى كابوس، حين لمحت الكورية البيضاء النحيفة الغلامية تقف عارية أمامنا وعيناها تومض ببريق غامض وتبتسم ابتسامة بلا معنى.

لم تنطق بشيء، فقط دفعت بجسدها النحيف إلى المشهد، ورسمت ببياض جسدها مع لون القهوة الذي يميز جسد الأخرى، تشكيلًا حسيًا لم أكن خبرته سوى في الصور والأفلام. وعلى الرغم من أنه أثار انتباهي بصريًا، لكنه لم يثر أيًا من حواسي. توقفت فتاة الجُزُر النائية والبحار البعيدة عن عناقي. واحتلت الأخرى المشهد. اكتفت الفتاة الكورية بجنس فموي استجبت له بدافع الشفقة. وتمددت نائمًا وطلبت منها أن تعلوني حتى أتمكن من تحسس إليتيها الناعمتين، لكي أثير نفسي، متغلبًا على نفوري منها. كانت تؤدي أداءً مصطنعًا خاليا من أي روح أو إحساس، ولكني استجبت لها لأنني فهمت أنها تحلل ما تريده من نقود. فيما ظلت روحي معلقة بفتاة الجُزر الاستوائية، ورائحة البحر، وحرية الآفاق الممتدة خلف المحيطات، وأعشاب الوديان الخشنة، وبنظرتها المندهشة في براءة غريبة.

عندما انتهينا كنت أتمنى أن تبقى الفتاة الخلاسية الفاتنة نائمة في حضني

فاغرة عينيها بهذا المزيج الآسر من الدهشة والبراءة والسكينة. أن أثرثر إليها بكل أسراري دفعة واحدة، متأكدًا أنها ليست سوى جنيّة من جنيّات البحر، سوف تغمر أسراري في مياه المحيط.

لكن ما حدث هو؛ أن الخلاسية بقيت مستكينة في مكانها بعينين ناعستين على شفا النوم، فيما الحليبية تثير الإزعاج بالثرثرة، وبرغبتها في إيجاد أرز للفطور:

– أرز للفطور؟

– نعم أرز للفطور. هذا فطوري اليومي.

ثم تعود لتزعجني بتأكيد احتياجها للنقود والمساعدة، فيما تردف كل كلمة بندائها لي "دادي. دادي".

صرخت فيها: "ششششششششششششش! اصمتي. أنتِ تثيري أعصابي بصوتك. أريد أن أنام".

نظرتْ لي باستكانة تمثيلية، ثم أخذت تحكي لي عن أبيها الذي لم تره لأنه هرب من أمها بمجرد أن حملت بها!

– هل كان كوريًّا؟

– نعم. كيف عرفت؟

– هل يحتاج ذلك إلى نباهة؟ أنت تبدين ككورية، أو يابانية، لا شيء يدل على أنك من الفلبين، ربما سوى لغتك وأنت تقرقرين بها مع

صديقتك، ولا أفهم منها شيئًا، وهل بحثت عنه؟

- أمي كانت ترفض ذلك.
- وأنتِ هل كنتِ توافقينها؟
- أمي كانت تقول إن ذلك لن يجر عليَّ سوى التعب والألم، وأن الأفضل لي ألا أعرفه.
- وهل تؤمنين بذلك؟
- أريد أن أعرفه. رغبتي في التعرف إليه أكبر. رغم أنني أحيانًا أقول إن سبعة عشر عاما لم يبحث فيها عني تكفي لأمحو فكرة وجوده من ذاكرتي.
- وما المشكلة إذن؟
- أين أجده وكيف؟
- معقولة؟ الفيس بوك. تويتر. هل سمعت هذه الأسماء قبل ذلك؟
- هذه فكرة فعلًا. ليس لديَّ حساب على الفيس بوك. سأفعل. فكرة رائعة أشكرك عليها يا دادي.

ابتسمت لها ابتسامة باردة ثم قلت:

- شكرًا لك، والآن أريد أن أنام، فقد ظهر ضوء الفجر.
- أعطني أموالًا لأشتري أرزًا لإفطاري أنا وابنة خالتي.

- تحدثي عن نفسك.
- جئنا معا ونستحق رعايتك نحن الاثنتين.
- وماذا تريدين؟
- نقودًا مقابل ما فعلته لك.
- أوكي.
- وهي أيضًا.
- ما شأنك بها؟
- ابنة خالتي، وهي لا تهتم بحقوقها. لكن أنا أهتم. انظر إليها. إنها مخلوقة شديدة الطيبة ولا تستحق منك هذه القسوة. تحتاج لنقود لتصرف على نفسها في الجامعة. أنت لا يمكن أن تصدق مدى فقرنا.
- خذي حقك وانصرفي.
- والحلمات؟
- أي حلمات؟
- حلماتها! ألم تمصّ حلماتها؟

نظرتُ إليها وضحكتُ طويلًا، ولوهلة مر على ذهني خاطر أن أمسك بها من شعرها وأخرج بها عارية كما هي، وأذهب بها إلى إدارة الفندق

مدعيا أنها لصة. ولكني تراجعت وقلت لها بهدوء:

– اخرجي الآن. هاك نقودك. انصرفي وإلا..

***

بعد خروجهما شعرتُ براحة عميقة. لم أرغب في شيء قدر رغبتي في النوم. ألقيت بنفسي في الفراش، وتذكرت الفتاة السمراء وابتسمت. هذه فتاة ليست من الواقع رغم أنها واقعية جدًا، لكن ملامح وجهها تمنح الإحساس بأنها تسللت من لوحة فنية إلى الواقع، تحمل نظرة الدهشة التي رسمها بها الفنان، وتستقبل كل ما يحدث حولها كأنه لا يمتُّ لها بصلة. تمنيت فعلًا لو أنها كانت جاءت بمفردها. كنت سأئتنس بوجودها. حتى ممارسة الجنس معها، بدت لي استثنائية.

دوما يبدو الجنس مع امرأة لأول مرة غريبًا. هناك فتيات مارست معهن الجنس واستمتعت، لكني لم أعد أذكر شيئا عنهن، لا أذكر ملامح الوجه، ولا لحظة الذروة. لكن هذه الفتاة تمنح بعد دقائق قليلة الإحساس بحميمية جسدها، جسد يفرض نفسه، ويعطل الذاكرة بحيث لا تقارنه بغيره. يفرض وجوده اللحظي بعيدًا عن أية خبرات أخرى. لكنها تظل في الوقت نفسه تفرض هذا الإحساس المُحيِّر. إن هناك ما يشغلها، ليس شيئًا من أمور الحياة اليومية والمادية المفرطة كما صديقتها الصغيرة المتذاكية. لا لا. تبدو كأنها مشغولة بمسألة وجودية عميقة تؤرق كيانها كله، وأن

ممارسة الجنس بالنسبة لها أيضا محاولة للتفكير أو حل هذه المسألة.

***

استيقظتُ على صوت طرقات خافتة على الباب، لكني لم أتحرك. اعتقدت أنها طرقات على الباب المقابل لباب غرفتي. نظرت في الساعة وكانت تعلن لي نومي لثلاث ساعات متصلة منذ غفوت. لا بأس. قلت. وعادت الطرقات فنهضت متشككًا في أن تكون إحدى عاملات نظافة الغرف.

نظرت من العين السحرية فبوغت. ترددت للحظة، ثم فتحت الباب، وأمسكت بذراع الواقفة خلف الباب بقوة وأدخلتها الغرفة. كانت هي ريزال نفسها في هذه المرة. صرختْ مباغَتة. وهي تندفع باتجاهي ثم ترتطم بي، لأني وقفت لكي أغلق الباب بعنف. ثم دفعتها إلى الباب بكل ما أمتلك من قوة حتى ارتطمتْ به.

صرختْ وبدت مرتاعة، ثم قالت: "ماذا حدث؟ ماذا بك".

فجذبتها من يدها التي رفعتها لتحمي بها وجهها عندما اقتربتُ منها، وبكل غيظي دفعتها إلى الفراش. كانت ترتدي بنطالًا جينز وقميصًا أحمر مفتوحة أزراره العلوية. وحذاء أسود خفيفًا.

ارتطمت بالسرير نائمة هذه المرة، وبدت شديدة الجزع وهي تصرخ: توقف وإلا سأطلب إدارة الفندق. أنت مجنون.

توجهت إليها وملت عليها وأنا أثبت كلتا ذراعيها ثم قلت:

– أنتِ لم تري شيئا بعد حتى تستغيثي.

– توقف.

– اصمتي. من هما تينك القحبتان اللتان أرسلتيهما لي؟

– لم أرسل لك أية قحاب.

– بلى فعلتِ.

– ليستا قحبتين. هما فتاتان صغيرتان فقيرتان.

– وهل قيل لك إنني مؤسسة إعانة اجتماعية للمومسات؟

– انتظر. أنت تؤلمني.

ضغطتُ على كتفيها بقوة أكبر وأنا أقول بغيظ:

– رائع لأنني أريدك أن تتألمي.

– أووف دعني وشأني. أنتم العرب هكذا دوما تحبون العنف.

في تلك اللحظة التمعت عيناها، ولمحت تحت الوجه المتغضن بملامح الألم نظرة غريبة، بينما فكرت أن أصفعها، لكنني تراجعت وجذبت شعرها من الخلف وقلت:

– إياكِ أن تنطقي بحرف آخر عني أو العرب.

– آآآآه دع شعري. وكفاك تمثيلًا.

- ماذا؟

- أنت تريد أن تمارس العنف عليَّ لكي تخفي ضعفًا في شخصيتك.

- ماذا تقولين يا ابنة القحبة؟

- لا تسبني. هذه هي الحقيقة. أنت تعالج ضعفك مع فتاتين فقيرتين لم تستطع أن تطردهما من الغرفة بممارسة العدوان عليَّ.

وقبل أن أردّ عليها بأي شيء، وجدتها ترفع رأسها قليلًا، وتقاوم إمساكي بذراعيها، ثم تخطف وجهها نحوي بحركة سريعة وتلعق إحدى وجنتيّ بلسانها. وضعتُ ركبتي حول خصرها، فحاولت أن تلف ساقيها على ظهري، لكنها لم تنجح، لكن حركتها العنيفة جعلتني أسقط عليها فقبلتني في عنقي، وفاض أنفي بعبق دبق من شعرها، كان مزيجًا من عطر ورائحة مطر عطنة. والعبق شبق.

بدت لي قبلتها، رغم شهوانيتها، كطعنة رهيفة، كحد سكين أرهفه الصقل، يمر على بطن المعصم، فينبثق الدم ولا يشعر المجروح بألم.

شعرت أنها استثارت من العنف، فقررت أن ألعب الدور للنهاية، تركت ذراعيها ثم أمسكت عنقها بكفي وشرعت في خنقها. بوغتَتْ، لكنها بين الذُعر واللّذة أماتت ضحكة ارتسمت، لثوان، على وجهها الذي احمرَّ بقوة، وبحركة واحدة خفيفة كانت قد تسللت بذراعيها أسفل الـ"تي شيرت" الذي أرتديه، ومررت أظافرها على ظهري بوحشية فصرختُ من الألم، لكني حررت رقبتها ووضعت يدي أسفل

الـ"تي شيرت" الذي ترتديه أهتصر ما تقع عليه كفاي. بطنها وصدرها، والسوتيان الصغير الذي رفعته بأصابعي وقبضت على إحدى نهديها من أسفله، فوجدتها تطبق بفخذيها معا على إحدى فخذي، وتموء كقطة في أوْج ملاداتها بالشبق. استثارني ملمس بشرتها. وهكذا بدأنا نخرج عنفنا المبتور كل تجاه الآخر، بيقين متبادل بأنه كلما زاد العنف زادت شهوتنا، وقد كان.

حين استرخيتُ على بطنها، بينما أمواج الشهوة لا تزال تتدافع بين رأسي وظهري، وألم خفيف لا يزال ينبض خافتًا في أيري، وقلبي يدق بعنف وأنفاسي المتتابعة تجعلني ألهث ككلب. ابتسمتْ لي بدلال وقالت: ها أنت ترى. لقد أنجزت لي إنجازًا استثنائيًا. هذه المرة الأولى التي تأتي فيها شهوتي بلا استعراض.

- بلا استعراض؟

- دون أن يراني أحد وأنا أمارس الجنس؟

اضطجعتُ إلى جوارها؛ ملقيًا بجسدي كأنني أنازع من شدة اللهاث، رافعًا ذراعي في الهواء، وابتسمت لها وأنا أبتلع ريقي، ثم أمسح جبهتي المتعرِّقة:

- هذا الموضوع حقيقي؟

- جدا؟

- كيف؟

نهضت وهي تفتش بجوارها عن علبة المناديل الورقية التي سحبتْ منها منديلًا وضعته بين فخذيها، ثم ركضت صوب الحمام. تأملت جسدها الصغير المكتنز في تناسق، وأردافها، وساقيها الجميلتين، وهي تتحرك على أطراف أصابعها المطلية أظافرها بلون نبيتي داكن ولامع، تتجاوز ثيابنا المتناثرة على الأرض. أضاءت مصباح الحمام وفتحت المياه. ومع وشيش المياه قالت:

- إذا أحببت سأصطحبك اليوم في سهرة خاصة جدا.

- ليس لديَّ مانع.

صمتت لوهلة ثم قالت:

- لكنك عنيف فعلًا. ها أنت أثبتَّ لي أنك لست مخصيًا، فلماذا لم تفعل ذلك مع الفتاتين الصغيرتين؟

تأملت سؤالها الذي جاءني مختلطًا بصوت مياه الدش في البانيو، وأنا أسبُّها في سري: يا بنت الشرموطة.

***

قبل أن نقرر الخروج من الغرفة، كنا قد أنهينا نقاشًا غريبًا حول العنف والجنس، بدت فيه مدهشة بمعرفتها بالجنس.

قالت: كنت أداعبك فقط. لكن في تفسيرات بعض السيكولوجيين

أن ارتباط العنف باللذة تعويض أو دفاع عن شعور باطني بالإخصاء. الشخص يقاوم إحساسه أنه مخصي بممارسة العنف.

فكرت قليلًا في كلامها، وتتبعت تاريخ علاقاتي الجنسية كله، وبدا لي أن كل ما مارسته من جنس كان دومًا ناعمًا ورقيقًا، مع ذلك فهذا لا يثبت شيئًا، بالعكس، فإحساسي بذاتي أنني رقيق أكثر مما ينبغي في ممارسة الجنس.

قلت لها هذا فابتسمتْ، ثم قالت: أريد أن أقول لك أنت تذكرني بتشارلز برونسون.

– تشارلز برونسون؟

– أما كانوا يلقبونه بأجمل قبيح؟

– لا أعرف.

– بلى.

– وإذن؟

– أنت أرق القساة.

ابتسمتُ لها وقلت لها:

– أظنك تحبين العنف، ولهذا تستفزينني باستمرار.

ضحكتْ ضحكة طفولية شقية ثم قالت بنبرة طفلة صغيرة:

- أنت تظلمني يا دادي.

ضحكت لأنها التقطت ما حكيته لها عن الفتاة الكورية، ودفعتها في كتفها فابتعدت عني بكتفها فقط لتتجنب الضربة، ثم عادت مباشرة ولعقت وجنتي.

فضحكت بصخب وقلت لها:

- أنتِ قحبة كبيرة.

كانت تجلس بالسوتيان و"الكيلوت"، وبمجرد أن قلت لها الكلمة نهضت ثم خلعت الكيلوت، ووقفت أمامي وألصقت بطنها بوجهي وقالت لي بصوت شهواني مثير:

- ها أنت ذا يا حبيبي تعرف الآن كيف تهيِّجني بهذه الكلمة، والآن لن أدعك تفلت مني. وقبل أن أنطق بحرف كانت بدأت تداعب بلسانها وجهي وأذني وصدري، وكنت أهتف : يا بنت الحرااام.

***

تمشينا في حي "ماكاتي" الذي كان مزدحمًا، تحيطنا الرطوبة من كل اتجاه، والمارة من كل الفئات. انحرفنا إلى اليسار فوجدنا شارعًا جانبيًا أقل زحامًا، تتراص المقاهي الأمريكية الطابع على جانبيه، بينما يلاحقني بين آن وآخر أطفال يمدون أيديهم بالشحاذة، وشباب يمد يده بأدوية مقوية

جنسيًا، وفتيات يمسكن بكروت تحمل أرقام هواتف فتيات يقمن بالمساج بتكلفة تقل كثيرًا عن أسعار الفنادق. وكانت هي تتكفل بالقرقرة معهم لإبعادهم عني.

من بعيد لاح لي ما يشبه مرقصًا ليليًا تعلو مدخله لافتة مضاءة بأضواء النيون كتب عليها (Pussy Cat)، وقبل أن أسألها شاهدت فتاة ربلة، بملامح آسيوية متناسقة وشعر أسود فاحم، ترتدي فستانًا أخضر اللون لامعًا، طويلًا بلا أكمام، مشقوقًا من عند الفخذين وحتى القدمين. كانت الفتاة تندفع باتجاهي كأنها تعرفني من سنوات وهي تنادي عليَّ بعربية مشوَّهة: هاي هابيبي.

ووجدتها تقف أمامي وتعترض طريقي كأنها تهم باحتضاني. نظرتُ إلى ريزال فوجدتها تبتسم، لكنها لم تعلق بشيء.

ابتسمتُ للفتاة وقبّلتها. لفحتني أنفاسها وشعرت بالإثارة فقلت لها:

– ماذا تريدين؟

– أن نقضي الليلة معًا.عليك أولا أن تتناول معي مشروبًا هنا في الداخل ثم ننطلق معًا.

ابتسمتُ لها فقالت بسرعة:

– لا تخف! وحتى لو رغبت أن أشاركك أنت وصديقتك الليلة، لا بأس كما تريد.

ابتسمتُ لريزال وقلت لها:

– الحياة هنا يمكن أن تصبح مثيرة فعلًا.

ابتسمتْ وهزّت كتفيها كأنها تقول إن الأمر كله يرجع لما أرغب فيه. قاتلت رغبتي في الفتاة الجميلة والواقفة أمامي وقلت لها:

– دعينا نرتب هذا الأمر، سأمر عليكِ غدا.

وقبل أن ترد الفتاة وجدت ريزال تجذبني من يدي وتخطو بخطوات سريعة، وأنا أنظر خلفي للفتاة التي كانت تقف في منتصف الطريق، ترمقني وهي ترسم نظرة حسرة تمثيلية هوليوودية كادت تدفعني للعودة إليها، لولا إطباق يد ريزال بحسم كامل على يدي كأنها كانت تعرف ما أفكر فيه.

قلت لها:

– لماذا تبدو مدينتكم بلا خصوصية، تشبه الكثير من المدن العربية، بنايات حديثة، وسيارات وزحام، لا شخصية مختلفة؟

– للأسف احتلتنا أمريكا لفترة فأسبغت على المدينة طابعها، حداثة بلا خصوصية. إذا أردت الخصوصية فيمكنك أن تزور الجزء القديم من المدينة، وهو أيضا لا يخصنا نحن، بل يحتفي بشواهد وآثار الإسبان الذين احتلونا 300 عام.

***

كنت أتأمل المدينة والناس، حينما احتضنت ذراعي لتنتحي بي صوب بناية كانت تقع إلى اليسار. دخلنا المصعد وخرجنا منه أمام ردهة بها ثلاث شقق. وقفت أمام واحدة منها وقرعت الجرس.

فتحت لنا الباب فتاة شابة، ملامحها عادية، ترتدي زيًا ضيقا أصفر اللون، عاريًا مكونًا من جزءين؛ يلف الأول صدرها وجزءًا من ظهرها، والباقي يشبه إزارًا بالكاد يغطي عورتها، بينما تنكشف لنا بشرتها القمحية عبر عُري كتفيها وبطنها وفخذيها، حافية القدمين. قدمان نحيلتان معتنى بأظافرها المطلية بلون نبيتي قاتم. وشعرها أسود ناعم ينسدل على كتفها. ترسم ابتسامة رقيقة وتقبّل ريزال بمحبة وتصافحني، ثم تدعونا للدخول.

دخلنا الشقة. كانت هادئة تمامًا. أنيقة بما يفترش أرضياتها من السجاد الفاخر، وبالأنتيكات الموزعة في كل مكان، تقودنا الردهة إلى غرفة صالون حديثة، ألوانها مزيج من النبيتي والأرجواني. أريكتان ضخمتان متجاورتان بحيث تصنعان معا حرف L، وبمجرد أن جلسنا عليها اكتشفت مدى ضخامتها. جلست مستريحًا ومترقبًا. بينما كانت ريزال تجلس بجواري وتبتسم لي. بعد لحظات دخلت فتاة تحمل صينية يعلوها كأسان بكل منهما مشروب بلون الماء، وبجوارهما طبق صغير يضم قطعا من الثلج. تجرعت كأس الـ"جين"، باستمتاع ممتلئًا بالترقب. فيما قالت لي ريزال: هل أنت مستعد؟

– لأي شيء بالظبط؟

– لكل شيء.

ابتسمت لها ابتسامة متسائلة ومسترية. قلت لها:

- كل شيء؟ ما هذه الأسئلة الغريبة؟

- إذن دعني أوضِّح لك الأمر. هذه الشقة هي مكان يعرف باسم النزوات. هنا بإمكانك أن تجد أي شيء ترغب فيه، أيًا كنت وأيًا كانت نزواتك. إذا كنت مثليًا ستجد ما تريد، وإذا كنت تحب أن تشاهد الفتيات العاريات يرقصن ستجدهن، وإذا رغبت أن تضاجع أيًا منهن سرًا أو علنًا فهذا أيضًا متاح.

- معقولة ما تقولين؟ أنا في شقة أصدقائك أم في بيت الأرواح الشهوانية؟

- كما تشاء. سمِّه ما شئت. الكل هنا يثقون في بعضهم ثقة عمياء، وما يدور هنا، ينتهي تمامًا بمجرد الخروج من الشقة. فقط إذا كان حضورك للمكان لأول مرة، فسوف يقتضي الأمر استضافتك هنا أولًا لتتناول كأسين أو ثلاثًا حتى تتأهل نفسيًا وتألف المكان قليلًا.

في هذه اللحظة جاءت الفتاة التي فتحت لنا الباب، مرة أخرى، وهي تحمل كأسين أخريين ممتلئان بالنبيذ في هذه المرة، ووَضَعَتْهما أمامنا وابتسمت لنا وسرعان ما انصرفت.

نظرت لي ريزال وقالت:

- ما يهمني فقط هنا أن تتحرر فعلًا. من كل شيء وأولا من ذكوريتك الشرقية.

- عدنا للفذلكة. أي شرقية تقصدين؟

- أعرفكم أنتم الرجال، وخصوصا الشرقيين تريدون في علاقاتكم كلها وبين علاقاتكم الجنسية أن تشعروا بأنكم تمتلكون المرأة التي تواقعونها. أنت نمتِ معي، وتعرف أنني بالتأكيد أمارس الحب مع آخرين لكنك لم تر هذا، فكن مستعدًا له.

- لستِ زوجتي على أية حال.

- إذن كن مستعدًا أيضًا أن ترى عشاقًا هنا يتبادلون الشريك، أو حتى يمارسون جنسًا جماعيًا.

نظرت لها ثم أمسكت بكأس النبيذ وتجرعت منها جرعة كبيرة لم تبق معه سوى الثمالة. تقلصت ملامحي من أثر مرور النبيذ بجرعة كبيرة في جوفي.

نظرت ريزال إليّ وابتسمت، ثم قبّلتني بعنف على شفتي وقالت:

- أستطيع أن أعتبر إجابتك هذه إجابة نموذجية.

التفتُّ إليها وقلت لها:

- ما طبيعة الجمهور؟

- من كل الجنسيات. أمريكيون، صينيون، يابانيون، وأحيانا أوربيون وحتى أفارقة.

- عولمة الجنس.

ضحكت ثم قالت:

- هذه فكرة نظرية، لكن الحقيقة أن ما يمارس هنا هو إعلان عن موت الجنس.

- موت الجنس؟

- طبعا.

نظرت لها دون أن أستوعب تمامًا ما تقول. تناولت الكأس وتجرعت ما فيها ثم قلت:

- ماذا تقصدين بموت الجنس؟

- هذه الفكرة لا تقال بشكل مباشر، لكن مع مرور الوقت ومع استنفاد الفانتازيات المختلفة، ووجود كل هؤلاء الأشخاص، ستجد أن أغلب من يأتي هنا إما قد انتابه شعور بموت الجنس من فرط الاعتياد أو بسبب الاكتئاب أو الملل. وقلة قليلة من أصحاب الطاقة الجنسية المفرطة يأتون لإيجاد وسائل تتناسب مع هذه الطاقة.

- تقصدين نهاية الثورة الجنسية؟

- نهاية الثورة الجنسية؟ لا أعرف. في بلادنا ربما نكون قريبين للمزاج الغربي، لكن لا أعتقد أننا بلغنا هذه المرحلة، ليست لدينا ثورة جنسية أصلًا. نحن نمارس الجنس بشكل عادي.
- لا أتحدث عنكم، بل عن المجتمع العالمي أو العولمي الذي تقولين إنه يتردد على المكان.
- أظن أن وجودنا نحن ما يمنح المكان خصوصيته. أو بالأحرى نحن من نمنحه سمة الغرائبية للأجانب، لو كان المترددون من الأجانب فقط لن يشعروا بالمتعة. لا ليس هذا ما أقصده. لكن يمكن القول إن موت الجنس هو بداية مرحلة ما بعد الجنس.
- أووف. أنت امرأة خطيرة، تقدمين نفسك بتواضع كبير، لكنك تتحدثين بأفكار مختلفة. من أنتِ؟

قرقرت بضحكة صاخبة وابتسمت، وهي تنظر لي بمودة وامتنان خجول، ثم قالت:

- لماذا تقول هذا الكلام؟
- لماذا أقول هذا الكلام؟ لم أفكّر فيما تقولين من قبل. الجنس وما بعد الجنس. كأنك تتحدثين عن الحداثة وما بعد الحداثة. الجنس الحُر والحرية الجنسية هي ظواهر التحرر الجنسي الذي صاحب مرحلة الحداثة، أما الجنس المتعدد، وغيره فهو ما بعد الحداثة.

صمتت قليلًا ثم قالت: ربما لا أقصد ذلك تمامًا، لكن الفكرة عمومًا

قريبة مما تقول. لكن لا تفهمنا خطأ، فنحن هنا في الفلبين، في النهاية، مجتمع عائلي كاثوليكي.

ابتسمتُ لها ثم تجرعت ما تبقي في الكأس ثم وضعتها على المنضدة بحماس وقلت لها بنبرة حماسية:

– أنا الآن مستعد.

ضحكتْ. تأملتُ ضحكتها بود ثم أضعفت صوتي وقلت بنبرة رجل عجوز متهاو: لكنني مستعد للفرجة فقط.

تحولت ضحكتها إلى ضحكة طفولية صاخبة، ثم قالت بصوت مختنق: هيا قد بدأنا.

نهضت وأشرت لها أن تتأبّطني وفعلتْ، وقادتني للخروج من المكان عبر ردهة طويلة انتهت بستارة صغيرة زرقاء اللون من القطيفة، نحّتها جانبًا وأدخلتني عالمها.

***

عفاريت العولمة كانوا جميعًا، وأنا بينهم، ريزال، وفتاة أخرى ذات شعر داكن قصير وجسد مكتنز بلون القهوة، قالت إن اسمها إيميلدا، تتميز بقدمين جميلتين تكوينًا، وأنيقتين بأظافرهما المقلمة بعناية، والمطلية بلون أخضر قاتم غريب، ترتدي فستانًا أخضر، صيفيًا أنيقًا قصيرًا؛ لا يكاد يغطي ربلتي فخذيها المدملجتين، والأمريكي الأسمر الرياضي الضاحك الثرثار،

الذي حلق شعر رأسه تمامًا واحتفظ مع ذلك بملامح وسيمة، والبريطانية الثلاثينية ممتلئة الجسد ذات الشعر الكستنائي الخفيف، وسيدة أخرى في أواخر الأربعينات، لكنها لا تزال تحتفظ بجمال جسدها، ببشرة قمحية، تتقن الفرنسية والإنجليزية وتعرف الفلبينية، وبينما تبدو من أمريكا اللاتينية فقد رفضت أن تعرّف موطنها، مؤكدة لنا أنها مواطنة عالمية بلا جنسية محددة، ولم يكن أحد مشغولًا بجنسيتها بقدر شغفهم بجمال جسدها الخمري.

تقارعنا الكئوس حتى دارت الرؤوس، وتخففنا من ارتباك التعارف الأول، وتخففت الفتيات من أغلب ثيابهن تباعا. تعالت الضحكات، فيما كنت أختلس النظر إلى السيدة عالمية الموطن، وهي تكتفي بالابتسامات والضحكات، ثم تنظر إليّ بدلال وتتجرع كأسها. كانت تضع سلسلة ذهبية رقيقة حول كاحل ساقها اليمنى، خطفت بها اهتمامي طوال الجلسة.

كنا عفاريت العولمة، ضحايا ما بعد الحداثة، وأهلها، المارقين على الحداثة بانسجامها الذي بدا مبتذلًا في عالم تختلط فيه كل القيم. ضحكاتنا مزيج من ضحك العالم الأول على العالم الثالث، وشهواتنا مزيج من رغبات مكبوتة أن يمتطي رجال العالم الثالث نساء العالم الأول، وأن تنسحق سيدات الأول تحت أجساد رجال الشرق الذين تتندر المدوّنات على فحولتهم.

مع ذلك بدوْنا منسجمين، نضحك معًا، ونقدم أجسادنا لوليمة

العولمة؛ مستثارين، ومرتبكين، مقبلين على الحياة وناقمين على ذواتنا وعلى لا عدل العالم، نبحث عن حل للملل، وعن معنى الشهوة واللذة وحيل الإيروسية، مخدّرين، تدغدغ الخمر مشاعرنا وتصفّيها، نخلع أقنعة النهار الكاذبة التي يخلقها الواقع، ونستسلم لبراءة الخمر فنصفو، وتمتزج رقة النفوس بالقوة التي يخلقها بخار الكحول، فيما تصبح ضحكاتنا مع الوقت أكثر براءة.

في لحظة بعينها يشعر الجميع أن الضوء الأحمر قد انطفأ، وأن اللون الأخضر الآن بإمكانه أن يجعل الأمريكي الرياضي يقبل على ريزال، ويضع يده في مهبلها بلا مقدمات، ويجعل عالمية الموطن تقترب مني وتمدد رأسها على فخذي غير عابئة بتسلل يدي إلى نهديها الدافئين الناعمين، وأن تنهض إيميلدا لتسقط فستانها الأخضر لتصبح عارية تماما، لكي تبدأ وصلة راقصة كأنها خادمة معبد موغل في التاريخ تهب نفسها ضحية للآلهة، لكنها مثل غيرها هنا، لا تستقطب من الاهتمام سوى لحظات، فلا يهتم أحد هنا بغيره طويلًا. فعفاريت العولمة يكشفون أن الاستعراض هنا ليس مجتمع فرجة استهلاكيًا، بقدر ما هو مجتمع يتجرّد من عبايات الأعراف والتقاليد، ويتخفف من قيود توارثها و لم يصنعها. مجتمع يسمح ويتسامح مع كل شيء. مجتمع يؤدي طقسا مستلهمًا من أديان ما قبل التاريخ. يبحث عن ذاته الضائعة في عالم لم يعد يقدس سوى المادة.

وضعتُ يدي على ردف ريزال، وهي جالسة على فخذي الأمريكي يضاجعها بلا كلل، فوضعت إحدى كفيها على يدي برقة كأنها تشركني

في لذتها. وحين تتوقف إيميلدا عن رقصها لتقبّل عانة السيدة عالمية الموطن، فإن تلك السيدة لا تتوقف عن قبلتها العميقة معي، بل تكتفي بوضع يدها الحرة على رأس إيميلدا كأنها تبارك ما تفعله.

تظهر الفتاة التي فتحت لنا الباب، أخيرا، وتقترب مني كأنها كانت تنصت لافتتاني الباطني بها. تأتيني عارية، وتقترب مني لتسكرني بشفتيها، وبفتنة بشرتها، كمن يرقب فنانة مسرحية، ويكوّن لها صورة ذهنية ثم يجدها فجأة أمامه.

لم أدرك ليلتها أنني أصبحت، بالمصادفة وربما عن عمد، لا أعرف يقينًا، جزءًا من مجتمع مارق عن كل أعراف الخارج الثقيل، متخففًا من الظاهر أملًا في باطن اللذة والمعرفة، في جوهر الحب والتسامح والتنوع.

لا أعرف متى انتهت هذه الوليمة الجنسية العولمية، ولا أذكر متى غفوْت في حضن السيدة المترفعة عن القوميات.

لكنني استيقظت في باطن الليل، ثقيل الرأس، وتأملت الأجساد الغافية من حولي. كانت ريزال تغفو في حضني راضية، وكنت في حضنها أغفو وأنا أشعر بأنني مدين لها بإحساسي هذا الذي خففني من أثقال عديدة.

عينان شاردتان

"عندما تضطجعي معي وتحبي | تهبيني عمرًا ذهبيًا فتيًا..
عندما تضطجعي معي ولا تحبي | أمد يدًا في العتمة.. فألمس
موتًا مبللًا وصاعقًا"

ميرزا راحان قائيل

دخلتُ إلى الغرفة، المخصصة لي في الملهى، حين يحضر للقائي زبون جديد. كان يحدِّق بي بعينين شاردتين. لكني هتفت لنفسي: "أخيرًا. رجلٌ وسيم!".

من النادر أن نجد رجالًا على هذا القدر من الوسامة هنا. أظنه في أواخر الثلاثينيات من عمره، وجهه القمحي المربع المنحوت متناسق مع شعره الغزير المموج، وحاجباه الكثيفان. اندهشت من أناقته المبالغ بها. يرتدي بنطلونًا من الكتان بلون السكر، وجاكيتًا من نفس الخامة واللون لكن

بدرجة داكنة قليلًا، وقميصًا سبور أبيض. وحذاءً أنيقًا بنيَّ اللون.

نظر لي وقال بابتسامة غامضة: "هل يمكن أن تغلقي مفتاح الضوء؟".

أغلقتُ الباب وقلت له بغُنج وأنا أقف بشكل استعراضي واضعة يدي على خصري: "ألا تريد أن تتأمل جمال جسدي؟".

ابتسم بشكل كشف عن تناسق أسنانه: "تأملتكِ بما يكفي طوال زمن الرقصة التي كنت تؤدينها، الآن أريد أن أتحسس جمالك".

عرفت ذلك. لاحظته بينما أقف على المنصة العالية التي تتخذ شكل حرف U، حيث نتراقص أنا وزميلاتي على الموسيقى الصاخبة، تستعرض كل منا جسدها، تحاول إبراز مفاتنها.

كانت "بِرتا" الخلاسية صاحبة الجسد الفاتن تقف بجواري. تسبب ذلك في توتري، فسوف تخطف عني الأنظار. لست سيئة في النهاية، فقد حصلت على قدر كاف من التغزل في جمالي وجمال جسدي. لكن أردافي صغيرة جدًا مقارنة بها. مع ذلك فها هو الحظ يبتسم، فلست أظنها تمكنت من الحصول على رجل بهذا القدر من الوسامة. وأحمد الله إذ سأتحصل اليوم مبلغًا إضافيًا.

حين وقعت عيناي على هذا الوسيم وهو يتأملني شعرت بالغبطة، ولكني لم اتوقع أن يطلبني. فكثيرًا ما يمر اليوم دون أن يطلبني أحد. في النهاية عددنا كبير جدًا. والمبلغ الذي تطلبه الصالة من الزبائن نظير اللقاء معنا ليس هينًا.

لم يكن بالغرفة ذات الإضاءة الخافتة أساسًا سوى هذا الفراش الصغير في ركن الغرفة الذي يجلس عليه. و لم يبد عليه أي اهتمام بالغرفة. اتجهتُ صوب مفتاح الضوء وقللت درجة الإضاءة إلى أدنى درجاتها. ثم اتجهت إليه وسألته:

"هل يعجبك الضوء هكذا؟ هذه الإضاءة الخافتة ستتيح لك فرصة أن تتابع إعجابك بجسدي".

ابتسم في الإضاءة الشاحبة وقال: "لو تدركين كيف يتوهج جسمك بإضاءته الخاصة لأغلقت الضوء تماما. لكن لا بأس. اخلعي ثيابك وتعالي هنا".

"أنت متعجل جدا".

"جدا".

"وأنت، ألن تخلع ثيابك؟".

"دعك مني الآن".

خلعتُ الفستان القصير المفتوح الذي كنت أتراقص به منذ قليل، وألقيت به على الأرض. وقفت عارية النهدين لا أرتدي سوى "الكيلوت"، وجورب شفاف أحمر اللون يصل لمنتصف فخذي. اقتربتُ منه حتى أصبحت سُرّتي في مواجهة جبهته تقريبًا.

أمسك بذراعيَ الاثنين للحظة ثم جذبني لأجلس بجواره. ساعدني لأتمدد بعد أن نهض بشكل مرتبك.

"ألن تخلع ثيابك؟".

"لا، ليس بعد".

نمت على ظهري بينما ظل هو واقفًا وبدأ يتحسس جسدي. وضع يديه على كتفي أولا وشرع يمرر عليهما كفه الدافئة القوية الجميلة خشنة الملمس. انتقل من كتفي مباشرة إلى وجهي. أمسك بوجنتي فمددت شفتي في انتظار أن يقبّلني. لكنه لم يفعل. ظل ممسكًا وجنتي ثم بدأ يتحسس بأصابعه جبهتي ويقرب إبهاميه معًا ليتحسس بهما أنفي.

"ألن تخلع ثيابك؟ لتكون على حريتك؟".

"لا لا ليس الآن".

تهيأ لي صوته الآن أكثر توترًا.

"قبّلني".

"ماذا؟".

"أريدك أن تقبّلني".

صمت قليلًا، وابتعد عني. اعتدل في وقفته ثم خلع الجاكيت وألقى به على طرف السرير وبقي بقميص نصف كُم كاجوال وبنطاله وحذائه. ثم مد يده إليّ فناولته كفيّ. أمسك بهما وقبلهما بالتناوب ثم نظر باتجاهي وقال:

"أرجوكِ ألا تفسدي الأمر. اتركي لي نفسك تماما، ولا تفقديني تركيزي بأيّ كلمة".

لم أفهم ما يريد، لكني أدركت أنني طالما واجهت مطالب خاصة للزبون فعليَّ الاستجابة لها بلا مناقشة.

"كما تريد.. لن أنطق بحرف".

"هذا هو. أنت فتاة مطيعة ورائعة".

مرر يده على جسدي كله وتوقف طويلًا وهو يمسك بنهدي. لم يهتصرهما أو يقبض عليهما بل احتواهما بكفيه. وضع يده أسفلهما ومرر إبهاميه أعلى الضلوع وعلى حدود استدارتهما على الصدر. بدا لي كأنه طبيب يتفحص جسدي ويتأكد من إصابتي أو خلوي من مرض عضال.

أثارني هذا الإحساس المتناقض بين اهتمامه الرهيب بكل تفاصيل جسدي، وبين توتري من خاطرة تشبيهي له بالطبيب.

وضع ابهامه داخل سُرّتي كأنه يقيس اتساعها، ووضع يده على سِوّتي برفق وتحسسها ذهابًا ومجيئًا.

باختصار فعل ذلك مع جسدي كله، حتى قدمي، أمسَك بهما وتحسسهما ظهرًا لقلب، واحتضن بكفيه كل إصبع من أصابعهما ثم تخلل ما بينهما بإبهامه وأمسك بالكعبين. فعل ذلك بعد أن طلب مني أن أخلع جوربي.

ثم طلب مني أن أقف ففعلت وأنا مستسلمة تماما ليديه اللتين كنت أشعر مع الوقت أنهما يدان خلقتا لجسدي. كفان عاشقان لجسدي بشكل لم أعرفه من قبل.

تحسس رقبتي وظهري بالطريقة نفسها. الكفلين، والردفين، أمسك بتلّي عجيزتي تحسسهما برفق، ثم تفحص طراوتهما، وهبط بيديه إلى ربلتي الفخذين مرورًا بربلتي الساقين، وجلس على ركبتيه ليتمكن من تحسس عرقوبي القدمين. وهو يطالبني، كلما تململت أو تحركت، بالصبر والهدوء.

عندما انتهى جلس على الفراش ثم قال لي:

"رائع رائع".

"ما هو الرائع؟".

"جسدك رائع".

"أشكرك. ولكن ألن تخلع ثيابك لكي تستمتع بهذا الجسد بشكل طبيعي؟".

"لا لا. لقد استمتعت تمامًا. لكن أريد منكِ خدمة".

"تفضل. هل تريد أن أمصّ لك قضـ.."

"لا لا لا. لا أريد هذا. انتظري".

اعتدل وأخرج حافظته، ثم تحسس بيده بعض محتوياتها وأخرج منها بطاقة ورقية مد يده بها إليّ ثم قال: "هنا ستجدين عنواني. أريدك أن تحضري لهذا العنوان مساء بعد ثلاثة أيام. هناك شيء أود أن أعطيه..".

"لا لا، لا أستطيع. نحن ممنوع علينا تمامًا أن نلتقي الزبائن خارج هذا المكان".

نظر لي بوجوم للحظات ثم قال بصوت صارم بعض الشيء:

"أريدك أن تري شيئا يخصك، وسوف أدفع لك ضعف أجرك لو شئت".

لم أقل شيئًا والتزمت الصمت. ثم قلت: "يمكنك أن تُحضر ما ترغبني أراه إلى هنا".

تنهَّد بنوع من الضيق ونفاد الصبر ثم قال: "هل أبدو غبيًا إلى هذا الحد؟".

"لماذا تقول ذلك؟".

"لماذا أقول ذلك؟ هل أفتقد الذكاء لكي أفعل ذلك. إذا كنت أدعوك للقاء فهذا يعني أن ما أود أن أريكِ إياه لا يمكن نقله إلى هنا".

صمتَ للحظة ثم أضاف: "كنت أنتظر أن يكون ذكاؤك بمستوى جمال جسدك".

ضربتُه على كتفه كأنني أعاتبه وأنا أرسم ابتسامة، لكنه أبدى انزعاجًا

بلغ حد الارتياع، كأنه بوغت تمامًا و لم يتوقع ذلك مني، لكنه عادِ وابتسم ابتسامة مرتبكة، فقلت له:

"حسنًا. إذن ليكن ذلك بعد يومين. الأربعاء إجازتي الأسبوعية الوحيدة التي يسمح لي خلالها الخروج من هنا".

"لا، هذا الأربعاء لا يناسبني، ليكن الأربعاء اللاحق، هل يناسبك هذا؟".

"بالتأكيد".

أخرج من حافظته أوراقا نقدية، مدَّ يده بها إليَّ، ثم نهض وأمسك ذراعي وقربني من وجهه ثم قبّلني على وجنتي. "أراك في الموعد. لكن ما اسمك؟".

"يمكنك أن تناديني إلزا".

لم يعلق بشيء. وضع حافظته وبدأ يتحرك باتجاه باب الغرفة، كانت طريقة مشيه غريبة كرجل يتعلم المشي. خطواته بطيئة ومرتبكة.

فتح الباب فخرجت خلفه ووجدت شخصًا في انتظاره، وفور أن خرج من الباب أمسك الرجل الآخر بيده فاتكأ هو على ذراعه بطريقة غريبة.

تأملت الكارت في يدي، ولمحت في الضوء الشارد من الغرفة اسمه بعد أن قربت الكارت من عيني كثيرا وبدا لي اسما مألوفًا على نحو ما.

هززت رأسي وابتسمت، فليست هذه أغرب الحالات التي تعرفت عليها في هذه الغرفة، بل لعل هذا الرجل الوسيم أقل من عرفت شذوذا، وأكثرهم حنانا ومحبة لجسدي.

عادة لا يمكنني أن أستجيب لأية دعوات خارجية، خصوصًا من الزبائن. لم أفعل ذلك أبدًا من قبل. كنت تلقيت عشرات الدعوات المماثلة من زبائن كانوا يجدون في النقود التي يدفعونها للمسئولين عن الصالة تكلفة مبالغًا بها. وكثيرًا ما يقترحون أن يلتقوا بي في شققهم أو في غرف الفنادق مقابل المبلغ الذي يدفعونه هنا لقاء مبيتي معهم. ولكنى لم أذهب إلى أي أحد. أخشى أن أخاطر بمكاني هنا، ويطردني أصحاب الصالة لأصبح هدفًا للعداء والإقصاء. شهدت تجارب الكثير من البنات اللائي دفعهن الجشع للعمل خارج الصالة.

لم أخبر أحدًا بالموضوع أيضًا، لكني كنت أشعر بشيء غامض حيال هذا الرجل الغريب الحنون. سألت نفسي ما الذي يُريد أن يريني إياه؟ حيلة لكي ينام معي على راحته ليلة كاملة يمارس فيها طقوسًا لا توفرها له تلك الغرفة الصغيرة البائسة؟ أم ربما يكون شاذًا ويرغب أن يمارس شذوذه، أو أنه ربما يحب أن يمارس الجنس جماعيًا مع أكثر من امرأة؟ أو ربما يكون ساديًا ويريد أن يمارس طقوس ساديته الجنسية على جسدي؟

"توقفي". هتفتُ لنفسي.

فبعد الكثير من الجهد، وبعد أن اعتدت مهنتي، تعلّمت أن أُبعد عن رأسي الأفكار السوداوية التي كانت تحرق عقلي في بداية عملي هنا.

وأدركت مع الوقت أن كل من يترددون على الملهى الليلي مجرد رجال يحبون الجنس، وقضاء أوقات ممتعة. بعضهم يكون محبطًا في حياته، أو صاحب نزوات خاصة لا تتوفر له مع صديقته أو زوجته، أو ملولًا، والبعض يريد أن يترك صرامة الحياة خلف باب الغرفة، ويترك نفسه على سجيتها معي. لكن ليس بينهم أبدًا مجرمون كما كنت أظن وأخشى.

لأول مرة أشعر أن فضولي يتغلب على ترددي ومخاوفي. قلت "وما الذي سيحدث؟ سأمارس الجنس مع رجل يعجبني. ليس لديَّ أفضل من هذا الاختيار في الحقيقة". في مهنتنا هذه أحيانا تكون ممارسة الجنس بشكل ممتع وبمقابل هو ذروة الحظ، وأعترف أنني لا أعتبر نفسي محظوظة.

***

في الموعد المحدد طرقت الباب وفقًا للعنوان المكتوب في الكارت، والذي لا يوجد به سوى اسم الرجل، "صوفي رحال" وعنوان منزله.

بعد لحظات سمعت صوت تكَّة الباب الذي انفتح، وفوجئت بشخص وسيم آخر وفتحت فمي بدهشة وأنا أسأله بابتسامة فضول: "أنت؟".

ابتسم لي وهز رأسه يدعوني للدخول.

كان البيت مؤثثًا بشكل يوحي بالحميمية وبالذوق الرفيع. ولكنه أيضا غير تقليدي. الأرض مبلطة ببلاطات لها لون عسلي داكن، وبارزة عن

الأرض، والجدران بيضاء. لكنها تبدو كأنها جدران لبيت ريفي تبدو غير مصقولة، المدخل يؤدي إلى آرش يطل على ركن فسيح يأخذ شكلا شبه دائري، فيه أريكة سكرية اللون مخملية تأخذ شكل نصف قوس، وأمامها منضدة من البرونز مستديرة، بينما تستقر منحوتات من البرونز والحجارة في كل مكان، وعلى الجدران عُلقت صور زيتية عديدة، بارعة وفاتنة وجميلة.

ابتسمت له شاكرة وقلت له: "أنت هنا؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟".

وضع إصبعه السبابة على شفته ثم قال: "أنا سأخرج فورًا من هنا، وسيأتي صوفي حالًا لاستقبالك. إلى اللقاء".

ما هذا الجنون يا ربي؟ هذا الشخص الذي نسيت اسمه حضر أمس إلى الملهى، وطلب أن يختلي بي في غرفتي، ولم يكن أقل غرابة من صاحبه. قال لي إنه لا يريد مني شيئًا.

"ولماذا تضيّع وقتك معي هنا إذن؟".

"لا تفهميني خطأ. بصراحة أريد أن أستمع إلى حكايتك".

"أي حكاية؟".

"حكايتك. قصة حياتك؟".

"قصة حياتي!".

أظنني لم أضحك كما ضحكت حين سمعت هذا السؤال. كنت أعتذر له بين كل فاصل أستطيع أن أتوقف فيه عن الضحك لكي أتمكن من التنفس.

ولم يوتره ضحكي على الإطلاق، بالعكس فقد غدا يضحك معي، وعندما انتهيت قال لي بجدية تامة: "والآن هل ستحكين لي حكايتك".

"هذا أغرب ما تعرضت له هنا".

ضحكت ونهضت من على الفراش، وكنت أرتدي شورتًا أسود قصيرًا جدًا، بالكاد يغطي وركيّ، وقميصًا أسود بكمين شفافين لا أرتدي تحته سوتيان. خلعت القميص وحررت نهديّ ثم خلعت الشورت ووقفت عارية أمامه وأنا أقول:

"أنظر لي جيدًا. أنا امرأة مثيرة. لديّ نهدان يقول الكثير ممن أمسكوا بهما إنهما مثاليان. انظر"، ثم شرعتُ أحركهما يمينًا ويسارًا وأنا أتراقص. أمسكت بهما وضممتهما معا، بينما كان يرسم ابتسامة خجولًا ولا يقول شيئا.

استدرت وانحنيت قليلا لأتمكن من إبراز أردافي أمام وجهه، ثم ضربت أكمتيها بكلتا يدي وأنا أقول له: "انظر لديّ ردفان جميلان، بإمكانك أن تفعل بهما ما تشاء"، وهززتهما له وأنا أتراقص، وأتوقع أن يهجم عليهما في أي لحظة.

التفتُ إليه فوجدته كما هو هادئًا ومبتسمًا وصامتًا. تقدمت منه وأنا أقول: "ألا يثيرك كل هذا فعلًا؟".

ثم برقت الفكرة في رأسي فقلت له: "أوكي أوكي فهمت.. أنت تستثار بالحكايات الجنسية..صح؟".

مد لي يده فناولته يدي. أمسك بها برفق وجذبني باتجاهه ثم أفسح لي مكانًا على الفراش. فجلست بجواره، مسح على ظهري وقبّل كتفي ثم قال: "اهدئي قليلًا ودعيني أشرح لك. أنا كاتب سيناريو، لديّ فكرة ولكني لست واثقا منها".

"أوه، سيناريست؟ هل تريدني أن أمثل في لقطة من فيلم جديد؟ هذه فكرة جيدة".

ضحك بصخب ثم قال:

"اهدئي قليلًا، أنت لا تمنحيني الفرصة لأكمل الجملة".

ابتسمت له وقد قتلني الفضول فجأة فقلت له:

"أوكي أنا آسفة. لكنك أثرت فضولي".

"كل ما في الأمر أنني أكتب قصة تصلح لكي تكون فيلمًا، لكني أحتاج بعض تفاصيل لشخصية من بطلات القصة، ولأكن واضحًا أريد أولا أن أكتب هذه القصة في شكل روائي قبل أن أكتبها للسينما".

ابتسمت له وقلت: "لكن لماذا تبحث عن قصة راقصة إستربتيز، هل بطلة العمل راقصة إستربتيز؟".

"ليس بالضبط، لكنها تعيش أجواءً مشابهة لما تعيشينه. لكن الحقيقة أنا أبحث عن قصة واقعية حقيقية، لأن الواقع دائما أقوى من الخيال".

"بمعنى؟".

"بمعنى أن أغرب ما يمكن أن يقرأه الفرد من قصص، وتبدو له عجائبية غالبًا ما سيجد لها أثرًا في الواقع، بل الأكثر من ذلك أن أولئك الذين لا يعرفون الكتابة أو القراءة أحيانا تجدين أنهم يمتلكون خبرات لا يمكن لأي كاتب أن يفكر فيها".

"ولكن بإمكاني أن أحكي لك أية مجموعة من الأكاذيب عن حياتي، فهل ستفترض أنها كلها حقيقية".

"دعيني أسمع وأحكم بنفسي".

***

سمعت صوت خطوات بطيئة من خلفي، وبعد لحظات وجدت صوفيً يطل من باب يؤدي إلى باقي غرف البيت على ما يبدو. انخطف قلبي عندما رأيته واندهشت من نفسي.

"مساء الخير". قال مبتسمًا فحييته وفوجئت أنه يقترب مني بخطوات حذرة، فنهضت وأنا أسأله بقلق: "ماذا بك؟".

توقف ونظر لي نفس النظرة الشاردة. فاقتربت منه أكثر وأنا أقول:

"تبدو مريضا أو متعبا".

"لماذا؟".

كنت قد أصبحت بجواره تماما، فأمسكت بيده، فتشبث بيدي بقوة.

"لا أعرف، تبدو كأنك غير قادر على المشي.هل تشعر بالتعب؟".

ابتسم لي وقال: "لا لست متعبًا.أنا كفيف".

ابتسمت محرجة من دعابته، وقلت له: "لا صحيح أنا أشعر أنك متعب فعلا".

وضع يده في ذراعي متأبطا إياه ثم قال بنبرة بدت لي صارمة: "لا صحيح، أنا كفيف، وعليك الآن أن تقوديني إلى الكرسي المنفرد الهزاز في غرفة المعيشة".

استدعيت تفاصيل لقائي به في تلك الليلة قبل عشرة أيام، وأحسست بالارتباك فجأة، لكنني انقدت إلى ما طلبه، وبدأت أتجه به صوب الكرسي المحدد.

لم أنطق بحرف حتى جلس على الكرسي. وعلى سبيل الدعابة فور أن جلس، ضممت قبضة يدي ولففتها أمام وجهه وقربتها منه بقوة كأني سوف أوجه له لكمة، وفوجئت أنه بالفعل لم يقم بأي رد فعل أو حتى يرمش. دققت النظر في عينيه ووجدته ينظر إلي بالفعل لكن بعينين شاردتين تماما.

اختلطت مشاعري فجأة، الارتباك والإحراج، وربما لون من الإحساس بالإهانة التي تدافع عن نفسها أمام إحساس آخر بالشفقة على الرجل. كيف كان يتغنَّى بجمالي وهو لا يراني؟

ابتسم لي ثم قال: "ألم يقل لك صديقي أمس في الملهى إن الواقع أغرب من الخيال؟".

"وهل تعرف بزيارته لي أيضا؟".

"أنا الذي أرسلته إليك".

"لماذا؟".

علا صوت موسيقى هندية بطيئة الإيقاع فجأة، فالتفتُّ حولي بفزع، بسبب صخب الصوت. لكنه بدا هادئًا ثم قال "أنا أحب موسيقى العالم".

طلب مني الذهاب للمطبخ ووصف لي موقعه، لكي أحضر لنفسي شيئًا أشربه. كان المكان فخمًا، ويتسم بذوق رفيع في كل شيء. خرجت من "الآرش" واتجهت لليسار. كان هناك مدخل صغير يقود لردهة طويلة تبدأ بالمطبخ وتنتهي بغرفة واسعة مضاءة بشكل قوي، وبينهما بدا لي أن هناك حمامًا أو أكثر، وغرفًا أبوابها مغلقة.

دخلت المطبخ الواسع المضاء بإضاءة متوهجة قوية. واندهشت أن رجلًا كفيفًا يعيش في كل هذا الوهج. كانت هناك طاولة كبيرة مغطاة

بالموزاييك تتوسط المطبخ، وتلتف حوله وحدات تخزين بيضاء أنيقة مغلقة أبوابها.

تناولت من الثلاجة مشروبًا غازيًا وأحضرت له مثله. بحثت عن الأكواب وخرجت بها إليه.

قلت له: "ذوقك رفيع، اسمح لي أن أسألك سؤالًا خاصًا".

"اسألي".

"هل تعيش وحدك؟ أقصد بدون امرأة".

ضحك وقال:

"أكيد وإلا لما استطعت أن أدعوك إلى هنا".

"أظن أنك فقدت بصرك في فترة متأخرة إذن؟ أقصد أن مسألة ضعف البصر هذا ليست أصيلة".

"ولماذا تعتقدين ذلك؟".

"ذوق المكان رفيع جدا".

صمت لوهلة. لم يقل شيئا، كأنه لم يسمعني. فصمتُّ بدوري. ولكنه نطق بعد لحظات:

"إليك بقية المأساة.أنا فنان. وكل ما ترينه من منحوتات هنا هي من صنعي".

***

في غرفة المرسم التي تتمتع بنافذتين عموديتين تطلان على حديقة وارفة، شاهدت مجموعة أعمال فنية أيروتيكية، فتيات جميلات جدا، قام برسمهن "صوفي" رحال باقتدار وإبداع، أجساد جميلة، جمالًا داخليًا يطل عبر الأجساد، فتنة، شبق، وألوان صارخة.

أما المنحوتات العارية فهي تكوينات من أجمل ما عرفت. كان صوفي فنانا كبيرا، وكنت أنا وحدي التي لا أعرف عنه شيئا.

وفي الغرفة نفسها سمعت منه كل شيء. كان يتكلم ببطء. وبعد كل جملة يتوقف كأنه يفكر فيما سوف يقول، أو ينصت لما سبق أن قاله وكيف قاله.

حدثني عن حبه للفن الذي عاش لأجله حياته، بلا امرأة، ولا حياة مستقرة، ولأجله كان يعمل كل يوم، مع موديلز، ومن دونهن، يركض يوميا ليحافظ على لياقته البدنية، ويتردد على مختبرات التحاليل الطبية مصابا بهستيريا الخوف من ارتفاع حمض اليوريك في دمه حتى لا تتكلس أصابعه وتفقد مرونتها وقوتها.

ثم بين ليلة وضحاها ذهب كل شيء، نور العين، والموديلز، والضوء، والنقاد والمعارض، وكل شيء.

سمعت صوتا يشبه البكاء، يشكو جحود البشر، وجبن الموديلز اللائي خلدهن في لوحاته، و لم يعد يسمع عنهن منذ أعلن عن المرض الذي أفقده البصر بغتة وبلا سابق إنذار.

لا أظنه كان يتحدث لي بقدر ما بدا يشكو قدره للآلهة.

***

نضجت في أسابيع قليلة عمرًا كاملًا بسبب هذا الرجل. لن أكذب وأقول إنني تعاطفت معه، بالعكس. خرجت في تلك الليلة من منزله وقررت ألا أعود للأبد. لكن شيئا عميقا في روحي كان يذكرني به ليلا ونهارا. لم أستطع أن أنزع صورته من خيالي.

عاندت نفسي. قلت إنني لا يمكن أن أضيّع حياتي التي أُهدِر جانب كبير منها في الفقر لكي أعيش ممرضة لكفيف، مهما كنت أهتم بأمره. بالإضافة إلى نزعة غرور كانت تحذرني من أن أمنح نفسي لرجل لا يرى جمالي، بينما يمكن أن يراه غيره كل يوم عشرات من المتيّمين الذين يمدون روحي بوقود النشوة من ملامح الإعجاب أو حتى الشهوة.

ولكي أتوقف عن التفكير به قلت لنفسي: "سيأتي إلى هنا مرة أخرى بالتأكيد، وحينها لأرى ما سيكون".

تناسيت أمره ربما لليلة واحدة، لكنني أدركت أن ثمة أمرًا ما يخص هذا الرجل. هل تعلقت به؟ لماذا؟ لم أجد إجابة. فوجئت بأن حياتي تحولت فجأة إلى ما يشبه الانتظار اليومي له. كنت أنتظر في غرفتي حين تخبرني مديرة الصالة بأن هناك من يريد أن يلتقيني فأنتظر بتحفّز وأنا أتوقع أن أرى صوفي. لكنه لم يحضر أبدا.

تذكرت حكايته عن بحثه عني. كيف حلم بفتاة يقول إنها لا بد أن تكون تشبهني تماما، وقرر أن يبحث عنها. وأنه في ليلة تالية حلم بمكان قرر زيارته وكان هو ذلك الملهى. وكيف أنه استعان بصديقه الذي زارني ليستمع لحكايتي لكي يصف له كل الفتيات، وأنه انتبه لوصفه لي، بشكل خاص. وقرر أنني فتاة الحلم.

قلت إذا كان قد جاء لي بهذه الطريقة القدرية، فلا بد أن هذا هو دوري لكي أبحث أنا عنه.

***

استقبلني بفتور، لكنه بعد فترة دعاني إلى تلك الغرفة المستقرة في نهاية الممر المتضمن لغرف شقته. دخلت وصرخت حين شاهدت منحوتة لجسد أنثوي جالسة على كرسي تشبهني تماما. أقصد أن جسدها يشبهني تماما.

تأملت الوجه، كان تركيب وجه الفتاة يبدو مماثلا لتكوين وجهي. وجنتان نحيفتان طويلتان نسبيا، تنتهيان بذقن مدببة، وشفتان ممتلئتان. وأنف أفطس وصغير مثل أنفي. لكن بلا عينين.

بكيت فجأة، ورأيته ينظر باتجاهي لكنه لم يقل شيئًا. أدركتُ أن هذا الرجل استطاع أن يراني ببصيرته، بينما العالم حولي من المبصرين يبدون لي عميانًا. اقتربت منه واحتضنته. أبعدني عنه قليلًا، ثم بحث عن عيني

ومسح الدموع من أسفل جفنيهما. وقال:

"ما رأيك، هل تشبهك؟".

"إن كان صحيحًا ما قلته عن فقدانك البصر فهذه معجزة".

صمت قليلًا ثم قال:

"وما شعورك الداخلي؟".

"إنها معجزة".

ضحك بقوة فسألته: "لماذا تضحك؟".

نظر باتجاهي قليلا ثم خطا خطوات مرتبكة لليسار، وجلس على أريكة موجودة في طرف الغرفة قريبًا من مكان وقوفنا. وفور أن جلس قال:

"تعجبني الطريقة المباشرة التي تتحدثين بها باستمرار".

"فعلا؟".

"هل تعرفين أنني فقدت هذه السمة منذ فقدت بصري؟".

توجهت إلى الأريكة وجلست بجواره وقلت:

"لماذا؟".

"يبدو أن فقدان البصر لا يجعل المرء قادرًا على حسم الأمور بنفس وضوح المبصرين. ثمّة شيء في الظلام الذي أعيشه يجعلني مترددًا حيال ما أسمعه، لأنني لا أرى ملامح من يتكلم. يمكنك أن تقولي إنني أفقد

الأثر المباشر لفهم معنى الكلام المقصود، وبالتالي في توضيح ما أود قوله أو التعبير عنه".

لليلتين كاملتين اكتشفت أنني أردد جملته بلا توقف "ثمة شيء في الظلام الذي أعيشه يجعلني مترددا حيال ما أسمعه، لأنني لا أرى ملامح من يتكلم".

وقبل لقائنا الرابع حسمت أمري وأحضرت حقيبتي لكي أعيش معه.

كنت أعرف أنني أتخذ قرارًا مصيريا، لأنني سأعيش من أجل شخص آخر سأهبه روحي، والأهم من هذا أنني سأهبه عيني لكي يرى العالم من خلالي. شخص ظهر في حياتي بلا مقدمات، ورآني بنور قلبه، فيما يعيش هو في الظلام. لكنني تخلصت من كل مخاوفي وأخبرت مديرة الصالة بقراري، راجية إياها ألا تخبر مدير المكان إلا بعد أن أغادره تماما.

كان يرى في صوتي ملاذًا من صمت العمى بتعبيره، وأمانًا من نسيان العالم له، كان يرى جسدي حياة كاملة كما قال، وفي نومي بجواره عارية إحساس رائع بأنه لا يزال يحيا، بلا هواجس.

لكن الأهم من كل ذلك، والذي لا يمكن أن يذهب من خيالي هو صوته المجروح بالأنين والشكوى، حين وقف فجأة وظلّ محدقًا في الفراغ، رافعًا رأسه قريبًا باتجاه الأعلى كأنه يناجي أشباحًا لا يراها سواه: "أنا بهذه العاهة اليوم ميت. سجين حدود المكان، وقتيل الفن. لو كنت

كاتبًا لتمكنت من إملاء ما أودّ كتابته على أي أحد، لو كنت مسرحيًا لنُقل إليّ كل ما يدور على الخشبة، ولأنصتُّ بقلبي للشخصيات التي أخلقها لأعرف مدى دقة ما يحدث حولي، ولو كنت شاعرًا لحفظت في ذهني الأعمى هذا آلافًا من أبيات الشعر. لكني لست شيئًا من هذا كله. أنا نحّات. ما أريد أن أراه يجب أن أصنعه بنفسي، بيدي اللتين أصابهما العمى مع عيني. أنا بلا فن ميت، لا قيمة لحياتي، لا معنى لأي شيء حولي، ولا أستطيع الانتحار".

ركضت إليه واحتضنته، ووعدته بأن أهبه حياتي لكي يظل فنانًا كما يريد. قبّلني وعراني تماما وعاد يمسك بكل جزء من جسدي كما فعل مسبقا. ولكن شهوتي في هذه المرة كانت قد بلغت حدها فأمسكت به وخلعت عنه قميصه، وبنطاله وسرواله وأمسكت بعضوه خائفة من أن يكون عنّينا، ولم يكن، ومارسنا جنسًا وحشيًا خرجت منه بنشوة لم أعرفها من قبل وبخدوش وخمشات وكدمات في أنحاء متفرقة من هنا وهناك.

كنت سعيدة لأنني استطعت أن أخرجه من صلافته وقسوته اللتين اجتهدت في لقائيّ السابقين به لكي أخلصه منها بلا جدوى. كان يشعر أنني حين رفضت أن أعيش معه قد أسأت إليه، وتجاهلت ألمه، واعتبر ذلك لونًا من الجحود. قال إنه تجاوز تلك المشاعر لأنه كان يعرف أنني سأحضر، لكنه ليس مستعدًا ليسامحني.

***

تأقلمت مع حياتي الجديدة، ملهمة الفنان الأعمى، وقارئته، وموديله المفضلة والوحيدة، وعيناه، لكني لم أعد أحتمل.

لا أنكر أن حياتي اختلفت منذ عرفته. خصوصًا بعد أن قرأت له مئات الكتب في الفن والفلسفة والأدب. وقرأت قصائد لم أتصور يومًا أن هناك مثلها، واكتشفت عالمًا لم أكن أعرف عنه شيئًا. وبسببه بدأت الاتصال بقاعات الفنون، وصالات المتاحف الفنية، والمسارح. لكني أشعر أنني أعيش حياة شخص آخر. بشكل أو بآخر فقدت ذاتي.

امتلأت الغرفة بتماثيل ومنحوتات تشبهني بشكل يكاد يصيبني بالجنون. لكنه كلما أنجز منحوتة منها أصابته لوثة خشيته أن يكون ذلك عمله الأخير، فيشرع لعمل تمثال جديد.

وفي كل مرة يبدأ أولًا بطقوسه في تحسس جسدي بنفس الشغف والحب، كأنه يشعر به أو يتحسسه لأول مرة. ثم نبدأ لعبًا شبقيًا تحوّل بمرور الوقت إلى لون من السادية. أصبحت مضاجعتي وأنا أصرخ بالألم تشغره بشيء أقوى من لذة الحياة والفن.

كنت مع الوقت نسيت السبب في ذلك. فقد لاحظت أنه طالما كان مشغولًا بعمله لا يخطر الجنس على باله. وبسبب ذلك بدأت أشعر بالبرود الجنسي تدريجيًا. وردًا عليه؛ فحين اشتهاني في واحدة من ليالينا، حيث جلست لأقرأ له رواية من الروايات التي أحبها، بدأ يراودني ويتحسس جسدي لكني لم أكن في مزاج يسمح بذلك. لكنه أصر، وتمنعت. وبدأت بيننا لعبة من الشد والجذب انتهت بما يشبه جريمة اغتصاب.

اكتشفت أنني لم أكن غاضبة تمامًا حين فعل ذلك. لكني اصطنعت الغضب بينما كنت في قرارة نفسي أشعر باللذة، لدرجة أنها ظلت تناوشني، وقررت أن أتمنع مرة أخرى؛ حتى يدركني بنفس الطريقة. وحين فعلنا ذلك للمرة الثانية اكتشفت جانبًا مازوخيًا في نفسي لا أعرف إن كان موجودًا، كامنًا في أعماقي بالفعل، وينتظر من يستفزه، أم أنه انبثق من تجربتي الغريبة معه. مارست في غرفة الملهى تمثيليات فانتازية مع بعض الزبائن، لكنها كانت كلها وهمًا بالنسبة لي. لكن في كل تجربة مع صوفي أشعر بشيء مختلف.

***

حين ظل عاجزًا عن العمل لثلاثة أيام استدرجته لممارسة الجنس. كنت بدأت أشعر بالرغبة في التجديد، تجديد طاقته هو للعمل، وتجديد طاقتي الجنسية. فكرت في أسهل وسائل التعذيب. خرجت وأنا أفكر في الأمر وانتهى بي الأمر إلى شراء سوط من تلك السياط التي تستخدم في ديكور المنازل. كان سوطا جلديا أنيقا، رائحة الجلد المصنوع منها تشبه رائحة الأحذية الجديدة. له مقبض من جلد مقوّى صلب، أما طرفه فمجدول من ضفائر جلدية رقيقة.

وضعت السوط قريبا من الفراش. ونسيت أمره، لكني في ليلة رأيته فيها يائسًا سوداويا، قررت أن نمارس الجنس كما لم نفعل من قبل. قلت له وأنا في قمة لذتي أن يضربني بالسوط، ومددت له يدي به، فأمسك

بالسوط وظل صامتا ساكنا للحظات، بينما كنت أتمدد جاثية قريبة منه أتوقع الألم، وأشعر بالرهبة، لكني لم أشعر بأني سأتراجع على الأقل حتى أشعر بالضربة الأولى على ظهري.

وحين فعل جاءت الضربة على ربوة ردفي الأيمن فصرخت بألم حقيقي، وسرعان ما اشتعلت نيران الألم في موقع الضربة. وشعرت بقلبي يكاد أن يتوقف. عاودت الصراخ. انتظر للحظات وكأنه يحاول أن يتكهن بمدى ما أشعر به من ألم، ولكنه فاجأني بضربة أخرى جاءت على ظهري هذه المرة. وصرخت بأقوى ما امتلكت من قوة وطلبت منه أن يتوقف. توقف للحظات. ثم اقترب مني يتحسس جسدي وهو يعتذر. ولكننا في ليلة تالية عدنا لنفس الجنون، لكن في تلك المرة شعرت أن لدي طاقة لاحتمال الألم، بل ووجدت في الألم وفي ترقبه لونا من ألوان اللذة. وكنت أصرخ، لكني لوَّنت صراخي بشبقي.

وكان هو يجن بصوت آهاتي فيتمادى ثم يواقعني بجنون. ألم حقيقي وجنوني كان يستبد بي. لكني كنت أحتمله لأجل اللذة التي كانت تفرقع بداخلي بشكل لم أفهمه.

حين أتاني في تلك الليلة كنت ألتهب بالنشوة. أوْلجني وكأنه مسعور، لكنه ظل يحلف بتلك الليلة لفترة طويلة. وأصابته بعدها حالة من الحيوية التي كدت أنساها. عاد إلى العمل. ولفترات طويلة ذاهلًا عن كل شيء. وكلما شعرت أنه قارب أن يفقد همته عدنا إلى حفلة تعذيب، تطور فيها أداء كل منا.

لكنه بعد عدة أسابيع أخرى جُنَّ تماما. لا أعرف متى أصابته هذه اللوثة؟ أم أنه كان مجنونًا من البداية وأنا التي لم أنتبه.

ففي نهار غريب استيقظت من النوم لا أستطيع أن أحرك قدمي. حين استعدت وعيي وجدت جسدي ثقيلا بشكل غير طبيعي. حاولت النهوض فلم أستطع. وجدت رجليَّ من قدمي حتى فخذي مصبوبتين في قالبين من الجبس. صرخت أنادي عليه. لكنه لم يجبني. أعدت النداء. بينما تبينت أن حركتي بالفعل أصبحت مستحيلة، إضافة إلى شعور بألم حاد يشل جسدي كله. وفي ذروة الألم بدأت أشعر بالدوار وبثقل أنفاسي، وبكيت. وبين دموعي رأيت ظلالا لم أتبينها بوضوح، لكني رأيت وجهه للحظة. قاسيا وصامتا. عيناه صارتا حادتين أو هذا ما ما تهيأ لي بينما أراه يتأملني بعينين شاردتين.

شامات الحسن

"بصمت تام مارسنا الحب.. بين الضباب
والسحب"

لان لينج

قبّلتُ مواضعهن الخمسة. ونمتُ على ظهري عاريا منتشيًا ومكتفيًا. أغمضت عيني. وفي ظلام خيالي توهجن بالألق. خمس شامات للحسن. بها اكتفيت. أعاود التفكير فيما حدث ولا أصدقه. أغمض عيني وأفتحهما فأجدني متيقظًا، ويتسلل العبق الدبق الخليط من رائحة العود والصندل والأعشاب الخشبية، التي اعتدتها أخيرًا، إلى أنفي. أزرع أنفي في المخدة وأستنشق العبق بجنون لأتأكد أنها بالفعل جاءت إلى هنا، وكانت بجسدها كله نائمة بجواري حتى لحظات قليلة.

كنت أرقد على الفراش الذي يتوسط هذه الحجرة الفقيرة الصغيرة التي تحولت إلى عالمي كله منذ عملت هنا. أتابع التليفزيون ناعسًا مرتديًا فانلة وشورتًا. سمعتُ طرقات خافتة على الباب. طلبتُ من الطارق أن يدخل. ونظرت باتجاه الباب متوقعًا إحدى الخادمات أو العاملين في المطبخ. لكنني بوغت بها هي نفسها. الفتاة التي أتحمل مسئولية توصيلها إلى أي مكان في هذه المدينة الشاسعة. والتي تخرج عادة مغطاة بالكامل كما كل أهل هذه المدينة. لكنني كنت ألاحظ عينيها الجميلتين في المرآة عادة ما تلتقي بعينيَّ. وحتى اعتدت الأمر.

الحقيقة أنها فتاة محترمة، صموت، تنطق بالتحية بصوت هامس، متواضع، ولكنه ليس خجولًا. صوت أنثوي جميل به بحّة غريبة. تستخدم كلماتها بنبرة تجمع مزيجًا من النضج والحسم، ثم تخبرني بالمكان الذي سنذهب إليه، وحين نصل تخبرني بموعد عودتها. وفي الطريق عادة ما تمسك كتابًا بين يديها تطالع فيه حتى تصل المكان الذي تقصده.

هالني أنني وجدتها تفتح الباب، وتدخل في هدوء، في مظهر مختلف تمامًا، حتى تهيأ لي أنني لا أعرفها. ترتدي تي شيرتًا رياضيًا أحمر اللون؛ وبنطلونًا "تريننج" رماديًا وشبشبًا بيتيًا أنيقًا. تقدمت مني وهي تخطو بلا صوت، إذ تمتص صوت خطواتها أرضية الغرفة المفروشة بموكيت أخضر باهت، وحين انتفضت مبهورًا بمظهرها، ومباغتًا بحضورها ودخولها غرفتي هكذا بلا أي إعلان مسبق، وضعتْ إصبعها على شفتها كأنها تُلزمني بالصمت.

لو لم أكن أعرفها لقلت إنها فتاة من حيّنا في بلادي، فملامحها هندية، رغم أني لا أقول إنها جميلة، لكنها جذابة. سمراء شعرها طويل أسود ومجعد يرتمي على كتفيها. وجهها دقيق التقاطيع كان محايدًا كعادتها، بلا أي تعبير. لا هي مبتسمة ولا غاضبة. اقتربتْ من السرير فنهضتُ ووضعت قدميّ على الأرض. وقفتْ أمامي مباشرة وأمسكت برأسي فجأة كأنها تمنعني من النهوض. ثم قربت وجهي منها حتى التصق بصدرها. للحظة كنت مترددًا، لكن شذاها الجميل دوّخني فدفنت وجهي بين نهديها الصغيرين المختبئين خلف الـ"تي شيرت" ثم قبلت هذا الموضع، فوجدتها تحتضن رأسي. وضعت يدي على خصرها، بينما بدأت هي تداعب شعر رأسي. تسللت كفي من تحت التي شيرت وتحسست ظهرها. أحسست بأنني أنتعظ تدريجيا بينما هي تكاد تنيم رأسها على رأسي.

حين جئت لهذه المدينة الصحراوية الشاسعة لم يكن لديَّ ما أحلم به غير أن أجد مأوى يؤويني وعملا من أي نوع، وأن أتوقف عن التفكير في الفقر والبؤس، وكل ماضيي الذي أشعر كل يوم بمرارته. والأهم من هذا كله ألا أشعر بالإهانة. صحيح أن المهانة التي تراكمت في صدري بسبب الإحساس الطبقي المتضخم في بلادي قد لا تعادلها أية إهانة أخرى، لكني أيضا كنت أفضل أن أعيش في عالم لا أشعر فيه بهذا الإحساس.

ومنذ عملت سائقا لدى هذه العائلة، أشعر أنني وصلت إلى أكثر مما أبتغي. ففي النهاية أنا هنا أنتمي إلى مجتمع متجانس: الطباخون والسائقون والحارس والخادمات. لا ينظر أي منا للآخر نظرة دونية. ربما أواجه أحيانًا

سخافات زملاء العمل هنا في القصر من البنجال، وخصوصًا المسئول عن الخدم بوصفه أقدم الموجودين. ولكن هذا كله مقدور عليه.

أما مجتمع أهل القصر فهو مجتمع لا علاقة تجمعنا به أصلًا، لا طبقية ولا سواها. مجتمع بالنسبة لي كان يحقق لي مبلغًا شهريًا معقولًا أضعه في حسابي في البنك، وأمرر منه جزءًا إلى شقيقتي التي تربي خمسة أطفال بمفردها في كيرالا.

كما يوفر لي مسكنًا في غرفة ملحقة بالفيللا الضخمة، وثلاث وجبات محترمة لم أكن أحلم بها، وعملًا لا يتجاوز القيادة بهذه الفتاة، التي أوضحت من البداية لعائلتها أنها لن تشرك سائقها لخدمة أي من في البيت، خصوصا أخواتها الثلاث اللائي كن على عكسها تماما، لا يقضين وقتهن سوى في المحال التجارية، وفي التنقل بين بيوت صديقاتهن، والارتحال بين الأحياء التجارية والسكنية جاعلات من السائق المسكين الموكل بالقيادة لهن شخصا منهكا من التعب.

لم أكن أصرح لأحد عن شوقي البالغ للقراءة، صحيح أنها كتب مغامرات عن مجتمع الهند، لكنني كنت مولعًا بها. فيها كنت أرى كل ما أتمنى رؤيته ولا أستطيع. وفي فعل القراءة أجد أنني أنتمي لمجتمع إنساني لا علاقة له بالطبقات.

ما زاد من تقديري للفتاة، التي أناديها عادة بلقب سيدتي، تعلقها بالقراءة، كنت أتوق أن أسألها عن اسم الكتب التي تقرأها، والتي تبدو معها عادة غائبة عن الواقع، بل وكثيرًا ما كنت أضبطها تبتسم ابتسامات

واسعة، بينما تقرأ أو تبدي تعبير الاستمتاع أو الدهشة.

كنت حريصًا أن أخفي عنها عادتي في القراءة، حتى لا يُفَسَّر ذلك بأنه تطاول أو محاولة مني للتشبه بالمجتمع الذي تنتمي له. وهي كانت نصيحة الرجل العجوز، الذي ينتمي لنفس موطني، في جنوب بلادنا الشاسعة، والذي كان دليلي للفيلا حين عينت فيها سائقا لأول مرة.

***

بعد لحظات من احتضان رأسي لبطنها دخت من عبق العود الجميل الذي بدت وكأنها خضبَّت جسمها به. وشعرت بنشوة جعلتني أجذب بنطلونها للأسفل قليلا، وأضع يدي على إليتها مباشرة، وأدهشني أنها لم تمانع بل بالعكس فقد تثنت قليلا كأنها تعبر عن استحسانها لذلك. كانت إليتها ناعمة ولدنة ودافئة. مسَّدتها غير مصدق. كأنني بين الجنون واليقظة، أو في حلم سينتهي في أي لحظة. وضعت إصبعي في فوهة إستها، شعرت بدفء الموضع، احتضنت الفوهة الضيقة طرف الإصبع احتضانا ملتبسًا، لا هو بالرفض ولا بالقبول.

تأوَّهتْ بما يشبه الهمس، ثم شرعتْ في رفع الـ"تي شيرت" الذي أرتديه. رفعتُ ذراعي لأساعدها، وألقيت بالـ"تي شيرت" بجواري. وجدتها تتحسس أكتافي. لم أختبر مثل هذه الكف الناعمة الرقيقة الحنون من قبل. فقبَّلت بطنها بهيام حقيقي. مسدت ظهري وتحسسته وهي تميل عليّ. وبعد فترة اعتدلتْ، وأسقطت البنطلون، ثم رفعتْ إحدى ساقيها

لتتخلص من بنطلونها وأتبعت ذلك بالثانية، وأصبحت الآن تقف في مواجهتي ونصفها السفلي عار تماما.

قربتْ وجهها مني أكثر. ألصقت وجهي بأسفل بطنها، وهبّ عبق دافئ بدا لي مزيجا من عطرها ورائحة جسدها.

أمسكت كتفي ودفعتني برفق فتمددتُّ، وضعتْ يدها على خصري تسحب الشورت، حتى خلصتني منه. خلعت تي شيرتها الأحمر، وأصبحت عارية تماما. كانت حلمتا ثدييها داكنتين وثدأتاها مجعدتين قليلا. حافظت على ملامح وجهها المحايد، لكنها كانت تتعامل معي كأنني أفهم كل ما ترغب فيه. تملكني شعور بخصوصية هذه العلاقة، لهذا السبب أكثر من كوني محل اهتمام سيدة القصر.

كانت الآن عارية بجسدها الربعة، المتناسق، بطنها بارز ولدن، عضوها حليق، انتثرت على محيطه بقع صغيرة كأنها كانت موضعا لبثور، وكانت تحمل نفس الملامح وهي محاطة بشعرها الأسود الطويل.

بمجرد أن اقتربت مني عدلت من وضع جسدي وتمددت بطول السرير. أقبلتْ عليّ ممسكة بعضوي المنتصب تماما، واضعة إياه في فمها. لم تنظر إليّ، ورغم أنها بدت مهتاجة من قيامها بمصه، لكنها سربت إليّ إحساسًا باطنيا بكونها تريد أن تشركني المتعة. أن تكون سببا للذّتي أيضا.

انتهت ثم خطت بركبتيها خطوتين لحيطا بخصري بدلا من ساقيّ. وأمسكت به ووضعته في مهبلها، تحركت ببطء حتى تأكدت من دخوله، وأغمضت عينيها بنشوة، دون أن تغير من رصانة وحياد ملامح وجهها.

كان عضوي في تصلبه يقف بحيث يصبح موازيا لبطني، فراحت تحرك نفسها للأمام والخلف حركة رتيبة، وهي تستند بكفيها على صدري. كنت أتحسس ذراعيها وكتفيها، متأملًا نهديها الصغيرين، تتوسطهما شامة حُسن بارزة. راودتني رغبة لتقبيل موضع تلك الشامة. لكني ترددت. كنت أعرف في النهاية، أنها هي التي تقود العلاقة، ولم أكن راغبا في اختبار مخالفة هذا المبدأ الذي فرضته منذ دقت عليّ باب الغرفة.

كانت تتنفس بشكل سريع، وتحاول أن تكبت تأوهاتها مكتفية بشهقات شهوية بين آن وآخر. عندما زادت شهوتها، وجدتها تنحني بجذعها على جسدي، مقرِّبة جبينها من جبيني، ولم أتردد في تقبيل خدها الناعم، ولكن دون تمادٍ، وبشكل يبدو أقرب للامتنان منه لقبلة ماجنة، ووجدتها تودع قبلة خافتة رطبة على جبيني. أحسست بالتصاق نهديها بصدري. بينما كان خصرها يتحرك بنفس الحركة الرتيبة.

توقفتُ للحظات، وأحسست بمهبلها يعصر قضيبي على نحو غريب. نهضتْ واستدارت مولية لي ظهرها، وثبتت قدميها حول فخذي وأعادت وضعه، وراحت تنهض وتجلس على هذا النحو للحظات، ثم أرخت قدميها واستندت على ركبتيها مرة أخرى، وأحاطت فخذي بفخذيها، فيما كنت أتأمل ظهرها الناعم بلون القهوة بالحليب، والشامات الثلاث التي تتوزع كأنها مثلث، اثنتان منها تتوزعان أسفل لوحي الكتفين، والثالثة على يسار مسار العمود الفقري، الذي بدا لي منحوتًا كمسار رهيف بين صفحتي ظهرها.

عندما توقفتْ، رفعت نفسها عني، وتنفستُ الصعداء لأنني كنت أشعر أن شهوتي على وشك أن تنقضي، مرعوبًا من أن تخونني لذتي وتتسارع بما لا يتواءم مع الإيقاع الرتيب الذي أحسست أنها تتعمّده لإطالة فترة لذتها.

نامت على ظهرها، فنهضتُ، وترددتُ قليلا قبل أن أبادر بالاقتراب منها. ولما لم تتخذ هي أية بادرة شرعت في الاقتراب منها كي أعتليها، لكنها أبعدت صدري برفق مشيرة إلى مهبلها. عندما قربت وجهي بين فخذيها وجدت الشامة الخامسة على فخذها الأيسر إلى يميني، وقبّلت الشامة قبل أن أبدأ في لعق مهبلها الحليق، حلقته بعناية، إذ بدا شديد النعومة. كانت تتنهد تنهدات لاهثة شهوية خافتة. وبدت كأنها في هذه الفترة الهينة التي سمحت لي فيها بلحس مهبلها كانت تريح فخذيها، لأنها بعد فترة وجيزة، أبعدتني ونهضت وانقلبت على بطنها، دون أن تنام، بل اتخذت وضعية كلبية. عدلت نفسي خلفها وولجتها، ترددت للحظات لكنها لم تتحرك، فعاودت مضاجعتها بالإيقاع الذي تحبه.

***

قبلت مواضعهن الخمسة. ونمت على ظهري عاريًا منتشيًا ومكتفيًا. أغمضت عيني. وفي ظلام خيالي توهجن بالألق. خمس شامات للحسن. بهن اكتفيت.

عندما بلغت شهوتها نامت على بطنها للحظات، ثم نهضت تبحث

عن ورق كلينكس، مسحت به عضوها، ثم نظرت لي بامتنان لكن دون ابتسام، وعادت لتنام إلى جواري لدقائق. طلبت سيجارة دخنتها في هدوء، ثم نهضت وارتدت ثيابها. لم تلتفت لي حتى وصلت إلى باب الغرفة، وخرجت دون أن تلتفت إليّ.

فانتـازيـا

"تقولين لماذا يخترق الرجلُ المرأةَ؟ ولماذا لا تخترق الرجلَ المرأة؟
حسنًا...
لكني أعرف أن حتى لو ضاجعت كما تهوين
ستقولين: وماذا؟! كل الأوضاع سواء! كل الكلمات لماذا؟".
سعدي يوسف

لا أذكر متى غفوت، كنا قد انتهينا من سهرة لطيفة أنا و"جيمي" و"شيري"، ودخلت أنا وجيمي لننام، مارسنا الحب. كنا هائجين، واستمتعنا بكل التفاصيل."عملنا واحد حلو". عندما انتهينا كنا منهكين. لكننا لم نسقط في فخ النوم، بل ثرثرنا حتى أحسسنا بأننا سنقضي طول الليل يقظين. دخن جيمي ودعاني للتدخين. ولكني في النهاية، وكالعادة غفوت فجأة. استيقظت الآن وأنا أشعر بجسد جيمي خلفي. دفعتُ

أردافي باتجاهه فضمني إليه. أمسكت بيديه ولاحظت أنهما ليسا يديه. فانقلبت على ظهري دون أن أحاول إبداء دهشتي. وجدت شيري بشعره الطويل المجعد الأفريقي قد استند على ذراعه عاريًا وهو ينظر لي مبتسمًا.

سألته: "جيمي فين؟".

"مش عارف. صحيت ما لقيتوش".

"وأنت إيه اللي جابك هنا؟".

"أرق".

ابتسمت ونهضت وعدلت نفسي. لم أكن أرتدي سوى جاكيت أسود خفيف ارتديته حين نهضت لأدخل الحمام قرب الفجر، حين شعرت بالبرد.

منذ تعرفت إلى جيمي قبل عامين عرفني إلى شيري باعتباره صديقه المقرب. بدا شخصًا مريحًا من أول يوم. وأصبحنا صديقين، يعرف عني كل شيء تقريبًا. وأنا أيضًا. علاقاته العاطفية، تفاصيل مشاكله مع عائلته، زملاء عمله، والفتيات اللائي يتوددن إليه.

جلسنا متقابلين وبدأنا حوارا.

حدقتُ في عينيها الرماديتين خلف النظارة الطبية التي التقطتها من على المنضدة المجاورة للفراش، وشعرها البني المكتسي بدرجة من اللون الأحمر.

كانت ترتدي جاكيتًا أسود لم تغلق أيًا من أزراره وأبقته مفتوحا، برز منه نهداها المتهدلان الصغيران. طلبت منها أن تخلعه لكي نجلس متقابلين وعاريين تماما.

قلت له: ماذا تريد؟

"أريدك".

"وجيمي؟".

"هل يعني ذلك أنك موافقة وأن المشكلة فقط في جيمي".

ابتسمت له و لم أرد مباشرة. لكني تذكرت أنني منذ فترة أمارس فكرة فانتازية أتخيله فيها، وهو يمارس معي الجنس وفي حضور جيمي.

هززت كتفي في إشارة أردت أن تبدو غامضة.

لم أفهم تماما ما أرادت أن تعبر عنه حين هزت كتفها. لكن الابتسامة التي رسمتها على عينيها اللتين كعادتهما كانتا تلتمعان بالحيوية، خلف نظارتها الطبية ذات الإطار البلاستيكي بني اللون جعلتني أود أن أقبّلها أيا كان ما تقصده من حركة كتفيها.

تأملت نهديها وبطنها النحيف المتثني قليلا بسبب جلوسها وقلت لها: "لو حبيت أبوسِك دلوقت هتمانعي؟".

ابتسمت وقالت: بالتأكيد لا.

اقتربت منها وأنا أحدق في عينيها الرماديتين اللتين كنت أرى خطوطهما الداكنة في العدستين الفاتحتين كلما اقتربت منها، فأبعدتني بيدها وقالت:

"بس ما تبقاش كده مستعجل. تعرف إيه اللي ممكن يهيِّجني جدا؟

انتظرت إجابة سؤالها بترقب. و لم أقل شيئا.

ترددتُ قليلًا وأنا أتأمل عينيه البنيَّتين المحاطتين بأهدابه الطويلة وحاجبيه الكثيفين وقلت له:

"إننا ننام مع بعض أنا وأنت وجيمي".

نظر لي مشدوها وقال: "ثلاثتنا؟".

هزت رأسها بإلحاح بدا مشوبًا بابتسامة خبيثة قليلًا ومترقِّبة كثيرا.

لم أصدقها. وإن كنت شعرت فورًا بالإثارة.

لم أعرف ماذا أقول لها فسألتها:

"وعلى أي أساس؟".

لم أفهم سؤاله تماما فقلت له: "قصدك إيه؟".

"قصدي يعني جنس من غير مشاعر؟".

"عايز الصراحة؟".

"أكيد".

"أنا من فترة عندي أحاسيس غريبة".

ضحك ضحكة قصيرة مشوبة بالفضول وهو يقول: "أيوه كده أطربيني يا مُزّة".

نظرت لي بعتاب متدلل، أو ربما بدلال معاتب، ثم مسحت على فخذها الأيمن، وحكت بأظافرها فخذها. ثم قالت:

"أنا مش قادرة أقعد القعدة دي أكتر من كده. حاسة إن رجليا خدلت".

قلت لها "إنتي اللي قاعدة غلط. مصرّة تقعدي على رُكَبك. استربعي زيي كده".

تلفتت حولها ثم قالت: "باقول لك إيه. ما تيجي ندخن بره، ونكمل كلام".

***

استغرقنا زمنًا طويلًا ندخن ونتحدث ونشعر بتصاعد إثارتنا. وكلما أحس بالهيجان كان يتودد لي جنسيًا ويلمس أجزاء من جسدي.

كان الحديث عن فكرة الجنس الثلاثي مهيجة لي، ووجود شيري في حياتنا في أغلب الأوقات، ومبيته معنا في الشقة بدأ يستدعي الفكرة في ذهني. وعندما نوَّهت عنها لجيمي لأول مرة كان رد فعله جملة قالها مبتسما "يا لّلا يا بنت دين الكلب. أنا هاعرص عليكي ولا إيه؟". لم أرد عليه. ابتلعت ابتسامتي وصمت. لكني، عدت ألح على الفكرة بين آن وآخر.

تحينت ليلة كان هائجا فيها، فأبديت رغبتي في النوم واعتذرت له بأنني متعبة، لكنه لم يمسك نفسه، قبل أن يولجني قائلة له بهمس مبحوح بالشهوة: "طب تخيل إننا قاعدين على الشط لوحدنا دلوقت. وإن حد بيتفرج علينا دلوقت". كانت شهوته متأججة ويريد أن ينقض عليَّ في أي لحظة لكي يدخلني.

وفي مثل هذه الحالات، فكل ما كنت أقوله له يصبح مقبولًا، وفي مرات أخرى بدأ يتمادى ويسألني "وبعدين؟" فأسلسل له المشهد ليبدو أننا نمارس الحب أمام الناس فعلا، ثم عادة ما كنت أُدخل شيري في المشهد.

***

فتحت عيني، وتقلبت في الفراش عاريا. رأسي ثقيل، وناوشني إحساس

بالغثيان، لكنه بدا محتملا. كان علينا ليلة أمس أن نشرب كثيرا حتى نتجاوز مخاوفنا وارتباكاتنا. قلت لا بد من القهوة. قهوة سوداء قوية ستقضي على ذلك كله. نهضت وخرجت عاريًا تمامًا من الغرفة. توجهت إلى المطبخ المفتوح على غرفة الجلوس. لمحتهما من بعيد فابتسمت ظلّ ابتسامة، واستعدت إحساس الليلة الماضية كاملًا. كان يجلس على الأريكة المحاذية لطاولة المطبخ العصري المفتوح على الصالة، عاريا. تجلس هي بين فخذيه، تمنحني ظهرها وأردافها، بينما تتحرك فوقه برتابة، بإيقاع بطيء. وددت أن أسألهما، ضاحكا، إن كان لديهما طاقة بعد؟ لكني خشيت أن أزعجهما. اقتربت من المطبخ على أطراف أصابعي، وتسللت إليه أحاول ألا أصدر صوتا. ولمحتهما بطرف عيني. كانا الآن إلى يساري، ووجهها باتجاهي. نهداها الحليبيان المتهدلان يترجرجان مع إيقاع جسدها، كانت غارقة في نشوتها.

لاحظت أنني أغبطها، أو بالأدق أستعذب انهماكها في لذتها، وبينما ألقم القهوة في القدح كنت أتساءل هل أحببتها؟ وإذا كنت أحبها فلماذا لا أغير عليها من جيمي؟ ثم ابتسمت قائلا إن سؤال الغيرة أحرى بسؤاله جيمي ولست أنا. في النهاية وأمام جيمي أنا دخيل على العلاقة، أنا ثالثهما. إذن هل تجاوز جيمي الغيرة بالفعل، وقبل أن أقتسم معه جسد حبيبته؟! بدا طبيعيًا جدًا. تعاملنا معها كعاشقين يقتسمان عشق عشيقتهما.

لم أتحدث مع جيمي في الموضوع، على الرغم من أننا كنا ثلاثيا في الحياة، نتردد على المقاهي، ونثرثر بالساعات، ونلتقي بآخرين من أصدقاء،

ونشاهد أفلاما ومسرحيات، ونتحدث عما نقرأ ونناقش علاقات الأصدقاء العاطفية، فإننا لم نفتح هذا الموضوع للنقاش. باستثناء المرة التي شاهدنا فيه ثلاثتنا فيلما من اختيارها في البيت حيث يعيشان معا، وقبل أن أنتقل تقريبا بشكل كامل للحياة معهما.

الفيلم كان يناقش علاقة إشكالية بين أربعة أزواج، طرفين منهما كانا على علاقة سابقة، ثم تزوج كل منهما شخصا آخر، ويلتقون جميعا وتتعقد العلاقات بينهما. وبسبب الفيلم قضينا ليلة ثرثرة حتى الفجر عن العلاقات العاطفية والجنس، والحرية الجنسية في أوربا والثورة الجنسية، وعن علاقة سيمون دي بوفوار بسارتر، وعلاقاتهما الأخرى.

حتى ليلة أمس لم نتطرق للحديث أنا وجيمي في موضوع علاقتي بكاترين. شربنا وثرثرنا في وجود نانسي وعلاء اللذين قضيا معنا جزءا من السهرة، وبعد انصرافهما، كانت زجاجتا النبيذ اللتان تناولناهما مع مشروبات أخرى قد أدتا إلى احمرار وجنتي كاترين وأنفها المسحوب فوق شفتيها البارزتين، وارتسام ابتسامة ذاهلة على وجه جيمي.

نظرت إلى شيري، كانت سمرته تحول دون أن تترك أثرًا واضحًا للشراب، على عكس جيمي الذي يحمرُّ وجهه كثيرا مع الشراب. كان يرسم ابتسامة ويهرش بين آن وآخر في هوشة الشعر الضخمة التي تكونها

خصلات شعره المنكوش على الطريقة الأفريقية. كنت اتفقت مع جيمي أن نبدأ في تهييج بعضنا أمامه ونرى رد فعله. تململ في البداية وبدأ يبحث في التليفزيون عن قناة من القنوات، لكني كنت أشعر أنه ليس منتبهًا تماما لما يفعله. وضعت شفتي على شفتي جيمي وغبنا في قبلة شهوانية.

بعد دقائق انصرف جيمي للحمام، وبوغت برد فعل شيري الذي قفز وجلس بجواري وأخذ يتحسس ظهري العاري وهو يقول "مش عيب عليكم تهيّجوا في راجل وحداني زيي؟".

قلت له "أنت هايج صحيح والّا غيران؟".

"غيران؟".

"طبعا".

"اشمعنى يعني؟".

"علشان نفسك تنام معايا".

"من ناحية نفسي أنام معاكي ده صحيح. بس أغير ليه. جيمي برضو بتاعنا".

ضحكت ضحكة خليعة فوجدته يضع يده على فخذيّ ويتحسسهما بطريقة أثارتني بشكل غير طبيعي. ولكني لم أبعد يديه. عندما لاحظ رد فعلي وجدته يمد يده أكثر ويصل بهما إلى مهبلي.

انتابتني رعدة في ظهري. هيّجني ابن الكلب بسفالة. وبعدها وجدته يقبّل رقبتي وكتفي وظهري.

تعمدت أن أتأخر في الغرفة الداخلية حتى بعد خروجي من الحمام. سمعت صوت همساتهما. وصوت قُبل شهوانية محمومة. صوت همسات متمنّعة وراغبة تقترح ألا يبدآن في عدم وجودي. تخيلت شيري وهو يقبلها في أنحاء متفرقة من جسدها. كنت متوترا، لكني لم أشعر بالتردد. منذ بدأت تلح عليّ في موضوع الثلاثي وأنا أجد في الأمر شيئًا مثيرًا. كانت الموسيقى تصدح من جهاز الستريو الخارجي.بأصوات Enigma، كان الإيقاع يتدفق وصوت الأورج الكهربائي يمنح تنويعات تبدو مستلهمة من موسيقى الجاز، تفوح معها الأجواء الغرائبية والغامضة التي تثيرها موسيقاهم. The principles of Lust، ما بين الإيطالية والفرنسية تتوزع أصوات المغنين، فيما أحفظ معنى جملتين من الأغنية حين يأتي المقطع الإنجليزي بالصوت النسائي ناعما وشهوانيا: "ليس أسهل من فهم مبادئ الرغبة. افعل ما تهوَى وامنح مشاعرك طاقتها للنهاية. مبادئ الرغبة تحترق في عقلك. افعل ما تهوى حتى تجد الحب".

خرجت بحذر فوجدتها تجلس على فخذيه. بنطلونه ساقط عند أسفل قدميه لكنه لم يخلعه تماما، وهي بفستانها الأسود القصير ترفعه بإحدى يديها حتى خصرها وهي تعلو بجسدها وتهبط عليه.

لاحظت أن الشرفة مفتوحة فهتفت "يا أولاد المجنونة"، وأسرعت تجاه باب الشرفة وأغلقته. أحسا بوجودي لكنهما لم يتوقفا، واستمرا فيما يفعلان. جلست على الأريكة المجاورة أرقبهما مستثارا، أحسست أنني أراقب مشهدا لا يخصني. بدوْت لذاتي محايدا، متخلصا من كل الموروثات العاطفية والاجتماعية، كأنني أشاهد فيلما عاطفيا مثيرا. كنت متعاطفا مع متعتها بشكل بدا لي مدهشا، متجردا

من أي حس بالتملك أو الغيرة. تأملت وجه شيري كان منفعلا لاهثا ومستثارا يمسك أردافها بيديه. أحسست بنبل ملامح وجهه في تركيزه في شهوته وشهوتها. ثمة شيء جاد في هذه الملامح. ابتسمت للمشاعر التي تنتابني في هذه اللحظة. وأشعلت سيجارة.

أحسست بوجود جيمي حين دخل الغرفة. لم أنتبه لوقع أقدامه بل لصوته وهو يسب"يا أولاد المجنونة". لم يكن سبًّا، بل لوم به لون من المحبة المعاتبة. أدركت أنه سبّنا لأننا بدأنا نفعل ما نفعل دون أن ننتبه للشرفة المفتوحة. توترت للحظة لكني لم أكن مستعدا للتوقف عما أفعل لأي سبب. كانت مستثارة وتواصل ما تفعل بشهوانية. أظننا كنا مفاجأين من شدة شهوتنا، وإحساسي بوجود جيمي مراقبا لنا أشعرني بعد اجتياز لحظات الارتباك بشيء من النشوة فجأة.

في لحظة شعرت بأكثر من النشوة، ربما مزيج من السعادة، والإحساس بفيض من الحب لجيمي الذي تعالَى على كل المشاعر المعتادة، وقبل أن ينفذ التجربة، والرضا برغبة شيري في مضاجعتي بدفق من الرغبة، وطريقته في المضاجعة مشوبة بإحساس غامض تجاهه، تمتزج فيه الرغبة بالمشاعر. وكان ذلك يفجر حركتي وأنا أشعر بأنني لا أريد الزمن أن يتوقف، مستمتعة بفكرة أن جيمي يراقب إثارتي، وهو ما جعلني أتمنى أن يقترب مني بجسده بأية وسيلة، لكنه لم يفعل.

حين قامت لتغتسل سألت شيري عن مشاعره، وهو يمارس الحب في وجود شخص ثالث يراقب دون أن يشارك. ابتسم وأخبرني عن مشاعره المتناقضة وفقدانه للتركيز لوهلة لإحساسه بوجودي، ثم كيف هرب من هذا الشعور لكي يستكمل ما يفعل.

تناولنا الطعام لكي نخفف من أثر الشراب قليلا، ولكي نتمكن من مواصلة ليلة الحب التي أضفتْ علينا نحن الثلاثة إحساسا مدهشا وغريبا. تتابعت القفشات والضحكات طوال فترة الأكل. وعندما انتهينا عدنا نشرب وندخن ونضحك.

باغتني جيمي. جلس إلى يساري وأمسك بقدمي وبدأ يقبلها، وإلى يميني أمسك شيري بقدمي الأخرى وفعل مثل جيمي. بدا كل منهما يقبّل القدمين بطريقته ويتحسسهما، أو يمسح على الساق والفخذ. وبعد دقائق أخرى وجدتهما وبلا اتفاق، يلقمان حلمتي نهدي، كل من جهة. وانتفخت روحي برعدة من الإثارة. انتابني إحساس بالنشوة التي لم أعرفها قبلا.

دخلنا الغرفة وأقعت هي على ركبتيها، فيما أتاها جيمي من الخلف، وتمددت أمامها بحيث يمكنها أن تمص قضيبي.

بعد دقائق طلبت من شيري أن يأخذ مكاني فتبادلنا الأدوار.

ساورني شعور بالإثارة الشديدة وهما يتبادلان الأدوار، و لم أستطع أن أزيل ابتسامتي من على وجهي. كان الإحساس مدهشا. إن أكثر من مركز في جسدي يتلقى استثارة ما، ثم هذا الشعور بالاستعراض والفعل الجنسي معا في نفس الوقت. كان ذلك يرفع من إحساسي بالإثارة والهياج.

بدت رقيقة وجميلة، أميرة لعاشقين يحومان حول جسدها يرتحقان من مكامن جماله، مستثارين من شهوية الجسد العاري، ومن فعل الاستعراض المرتبط شرطيًا بهذه العلاقة الثلاثية. ولكني استثرت بشدة وأسرع من المتوقع فانتهيت، وخرجت إلى الحمام، بينما استكمل شيري يحرك أيره داخلها بلا توقف، وهالني أنهما استمرا طويلًا جدا يتضاجعان في أوضاع مختلفة. لم أهتم بالأمر كثيرا. كنت أشعر أنها ربما تحتاج إلى تجربة جسدية جديدة، بعد علاقتنا الطويلة لست سنوات، وهذا ما يحققه شيري الآن. دخنت وأنا أنصت إلى صوت إثارتها، عابرا من الغرفة إلى موقعي على هذه الأريكة، بفضول.

***

تأملتهما و أنا أمسك بقدح القهوة و أجلس، عاريًا تمامًا، غير بعيد عنهما. أشعلتُ سيجارة الصباح الأولى منتشيًا، شاردًا في استعادة الليلة الماضية

ومشهد الحب الماثل أمامي، وفي العلاقة المُركّبة التي بدأت منذ ليلة أمس، وهي تنفتح على كل الاحتمالات. أتساءل: هل تكون ليلة وتنتهي؟ أم أنها ستفتح باب المشاعر بيننا. هل يمكن في تلك الحال أن توزع مشاعرها على شخصين بالفعل؟ في أدائها بالأمس منحتني إحساسا بالذكاء الشديد، في التعامل معنا بحساسية، وبحيث يشعر كل منا بأنها تضع اعتبارا لما يمثله بالنسبة لها. لكن ماذا عني؟ هل يمكن أن أقع في غرامها؟ وفي تلك الحال كيف أتعامل معها؟ هل سنتمكن من الحفاظ على المرونة التي تتيحها لنا علاقة الصداقة الطويلة بيننا، أم أن شيئا مربكا سيحدث عندما تصبح كائنًا مثيرًا وموضوعا لرغبتي الجنسية؟ وماذا عن جيمي؟ هل ستتأثر صداقتنا بعد هذه الليلة أو هذه العلاقة؟

أوووف، شعرت برأسي ينتفخ بمثل هذه الأفكار التي كان من المرعب أن تناوش وعيي صباحًا في أول النهار حتى قبل أن يستعيد وعيي كامل لياقته.

جذبتُ نفسًا من السيجارة، وحبستُ الدخان في صدري لوهلة قبل أن أنفثه على نغمات غنجها التي كانت تتصاعد في أرجاء المكان. تتصاعد موجات الصوت متراوحة بين أنات الشبق، وتنهدات النشوة، وآهات الألم.

شكـــر

أشكر الصديقة الشاعرة إيمان مرسال على الوقت والجهد، اللذين منحتهما لمخطوط هذا الكتاب في صيغته الأولية، ولملاحظاتها التي أسهمت في تغيير الكثير من شكل المخطوط، واستبعاد بعض نصوصه التي كانت خارجة عن السياق، بفضل قراءتها المتأنية، وملاحظاتها الدقيقة في بعض أفكار القصص وجماليات بعض العبارات، ودقة مدلولات بعض المرادفات. وعلى توضيح انطباعاتها حول سياقات القصص، وحول دقة علاقة الرغبة بفكرة الجمال، ومفاهيم الجمال. وقد كان لقراءتها للكتابة الثانية للمخطوط، أيضًا، كبير الأثر في تنقيح المخطوط بشكل كبير. أنا حقًا مدين لصديقة مخلصة، وشاعرة موهوبة، وإنسانة نبيلة.

عزيزتي إيمان.. أنا ممتن تمامًا.





"كنت في أوج شهوتي، وغيابي في جسد الفتاة السمراء، أتساءل عمن تكون؟ سؤالٌ يولده العناق الشهواني، والخيالات، واللذة. وكانت الإجابات غامضة. كيانٌ شبحي يفيض بما تفسره الإيروسية بأنه الغرام، أو بأنها روح مسافرة من زمن بعيد إلى جسد يعيش في الحاضر".

هكذا يقول واحد من أبطال قصص هذه المجموعةالتي يرتاد بها الكاتب إبراهيم فرغلي عالمًا حسيًا يتأمل فيه العلاقات الجسدية عبر أسئلة فنية وأدبية عن معنى الرغبة، والحب، والقيم الأخلاقية في عالم متعدد الثقافات.

تتسم النصوص بحس عالٍ باللغة. لغة تعمل على تلاشي الحدود بين الواقع والخيال، بين الوهم والحقيقة، وبين العنف والحنان.

موتيفات الغلاف من رسوم كهوف تاسيلي
تصميم الغلاف: غادة خليفة

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 902604